

الأخلاق

فى القرآن والسنة

(الجزء الرابع)

الدكتور

على الخطيب

أستاذ و رئيس قسم الأدب والنقد

وعضواتحاد كتاب مصر وعضو رابطة الأدب الاسلامى العالمية

والعميد الأسبق لكلية اللغة العربية

فرع جرجا - سوهاج

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

٢١٢
ع. خ

الأخلاق في القرآن والسنة / علي الخطيب. - ط١. - دسوق: دار العلم
والإيمان للنشر والتوزيع
١٧٦ ص ؛ ١٧,٥ × ٢٤,٥ سم .
تدمك : 7-344-308-977-978
١. الأخلاق الإسلامية
أ - العنوان .

رقم الإيداع : ١٩٤٢٦

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة

هاتف : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ - فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١

E-mail: elelm_aleman@yahoo.com

elelm_aleman@hotmail.com

حقوق الطبع والتوزيع محفوظة

تحذير:

يحظر النشر أو النسخ أو التصوير أو الاقتباس بأى شكل

من الأشكال إلا بإذن وموافقة خطية من الناشر

2012

الفهرس

رقم الصفحة	المحتويات	مسلسل
٧	التفقه فى الدين	١
١٦	الإعراض عن اللغو.....	٢
١٨	وصل ما أمر الله به أن يوصل	٣
٢٢	عدم السؤال عما لا يعنك	٤
٢٩	التطوع	٥
٤٣	تقديم المشيئة	٦
٤٩	الكلام الطيب	٧
٥٧	التشاور	٨
٦١	البعد عن رفقاء السوء.....	٩
٧١	عدم الاختلاط والحجاب للنساء.....	١٠
٧٧	الإفءاء إلى أمر الله	١١
٧٩	الفداء والاستشهاد والإيثار	١٢
٨٨	الثقة فى وعد الله	١٣
٩٤	عدم قبول الرشوة	١٤
١٠١	ابتغاء الرزق عند الله.....	١٥
١١٣	الإصلاح.....	١٦
١٢٣	الإحسان للوالدين	١٧
١٣٠	الإحسان للأقارب	١٨

تابع الفهرس

رقم الصفحة	المحتويات	مسلسل
١٣٦	الإحسان لليتامى	١٩
١٤٣	الإحسان للمساكين	٢٠
١٤٧	الإحسان للجار.....	٢١
١٥١	الإحسان لابن السبيل والسائل	٢٢
١٥٤	الإحسان إلى الأبناء.....	٢٣
١٥٨	الإحسان إلى الزوجات.....	٢٤
١٧٥	المصادر والمراجع	٢٥

obeyikandali.com

التفقه فى الدين

إن الأخلاق فى كتابنا الكريم تحت المسلم على التفقه فى الدين والاستزادة من العلم ، وقد دعا النبي - صلى الله عليه وسلم - لسيدنا " عبد الله بن عباس - " رضي الله عنهما - بقوله : " اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل ". فكان - رضي الله عنه - أعلم الصحابة بتفسير القرآن الكريم ، ولذلك لقب بـ " حبر الأمة وترجمان القرآن " ، وقال - صلى الله عليه وسلم - : " من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ". ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [سورة التوبة: ١٢٢]. فمن أخلاق القرآن الكريم دعوة المسلمين إلى التفقه فى دينهم ، والتبصر بسنة نبيهم - صلى الله عليه وسلم - فقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [سورة التوبة: ١٢٢].

هذا بيان من الله - سبحانه وتعالى - لما أراد من نفي الأحياء مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى غزوة " تبوك ". فإنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفي على كل مسلم إذا خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولهذا قال تعالى : " أنفروا خفافاً وثقالاً " .

وقال - سبحانه وتعالى - : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا أَلَّ كُنُوبَهُمْ عَلَيْهِمْ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا

يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٠﴾ [سورة التوبة: ١٢٠]. والمعنى : ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي - صلى الله عليه وسلم - وحده ، فلولا نفر من كل فرقة عصابة، ويعنى السرايا ، ولا يسيروا إلا بإذنه ، فإذا رجعت السرايا وقد أنزل بعدهم قرآناً تعلمه القاعدون مع النبي - صلى الله عليه وسلم - . وقالوا : " إن الله قد أنزل على نبيكم قرآناً ، وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم ، ويبعث سرايا أخرى ، فذلك قوله - سبحانه وتعالى - : " لِيَنْفَقَهُوا فِي الدِّينِ " . والمعنى : ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم ، وليعلموا السرايا إذا رجعت اليهم لعلهم يحذرون . وقد نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، خرجوا في البوادي ، فأصابوا من الناس معروفاً ، ومن الخصب ما ينتفعون به ، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى ، فقال الناس لهم : ما تراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا . فوجدوا في أنفسهم من ذلك حرجاً ، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال الله - عز وجل - : { فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ } [سورة التوبة: ١٢٢] يبتغون الخير ، { لِيَنْفَقَهُوا فِي الدِّينِ } وليستمعوا ما في الناس ، وما أنزل الله بعدهم ، { وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ } الناس كلهم { رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ } .

وقال " قتادة " في هذه الآية : هذا إذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الجيوش ، أمرهم الله ألا يعروا نبيّه صلى الله عليه وسلم ، وتقيم طائفة مع رسول الله تتفقه في الدين ، وتنطلق طائفة تدعو قومها ، وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم . وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا غزا بنفسه لم يحل لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه ، إلا أهل الأعدار . وكان إذا أقام فاستترت السرايا لم يحل لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه ، فكان الرجل إذا استرى فنزل بعده قرآن ، تلاه رسول الله

- صلى الله عليه وسلم - على أصحابه القاعدين معه ، فإذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآنا . فيقرئونهم ويفقهونهم في الدين . وهو قوله : { وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً } . يقول إذا أقام رسول الله - عليه الصلاة والسلام - { فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ } يعني بذلك : أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعاً ونبي الله - صلى الله عليه وسلم - قاعد ، ولكن إذا قعد نبي الله تسرت السرايا، وقعد معه عِظَمُ الناس.

روى عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - أنه تعالى لما شدد على المتخلفين قالوا : لا يتخلف منا أحد عن جيش أوسرية أبدا ، فلما قدم الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة وأرسل السرايا إلى الكفار ، نفر المسلمون جميعاً للغزو، ففعلوا ذلك وبقي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحده فنزل { وَمَا كَانَ } إلخ والمراد نهيهم عن النفر جميعاً لما فيه من الإخلال بالتعلم { فَلَوْلَا نَفَرَ } لولا هنا تحضيضية . فإذا لم يكن نفير الجميع ولم يكن فيه مصلحة فهلا نفر من كل جماعة كثيرة فئة قليلة ليصبحوا فقهاء ، ويتكلفوا المشقة في طلب العلم ، لينذروا قومهم ويخوفوهم ويرشدوهم إذا رجعوا إليهم من الغزو، لعلمهم يخافون من عقاب الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه .

وعن ابن عباس في هذه الآية : " كان ينطلق من كل حي من العرب عُصْبَةً ، فيأتون النبي - صلى الله عليه وسلم - . فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ، ويتفقهون في دينهم ، ويقولون لنبي الله : ما تأمرنا أن نفعله؟ وأخبرنا ما نقول لعشائرننا إذا قدما انطلقنا إليهم . قال: فيأمرهم نبي الله بطاعة الله وطاعة رسوله ، ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة. وكانوا إذا أتوا قومهم نادوا : إن من أسلم فهو

ويقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة النحل ٤٣ : ٤٤]. والمعنى : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا ، ولم نرسل ملائكة ، ولا خلقاً آخر . رجالا نوحى إليهم كما أوحينا إليك ، ونكل إليهم التبليغ كما وكلنا إليك . وقوله تعالى " فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمُونَ " . والمراد : فأسألوا أهل الكتاب الذين جاءتهم الرسل من قبل ، أكانوا رجالا أم كانوا ملائكة ، أم خلقاً آخر . فاسألوهم إن كنتم لا تعلمون . وقد أرسلناهم بالبينات وبالكتب والزبر والكتب المتفرقة . سواء منهم السابقون أهل الكتاب الذين اختلفوا فى كتابهم ، فجاء القرآن والرسول - صلى الله عليه وسلم - يبينه لهم ، ويشرحه بفعله وقوله لعلهم يتفكرون فى آيات الله وآيات القرآن . فإنه يعود دائماً إلى التفكير والتدبر ، وإلى يقظة الفكر والشعور .

وفى المعنى ذاته ، وهو الدعوة إلى التفقه فى الدين يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [سورة الأنبياء ٦ : ٨]. والمعنى : قد اقتضت حكمة الله أن يكون الرسل من البشر ، يتلقون الوحي فيدعون به الناس . وما كان الرسل من قبل إلا رجالا ذوى أجساد ، وما جعل الله لهم أجسادا فم جعلهم لا يأكلون الطعام . فأكل الطعام من مقتضيات الجسدية ، والجسدية من مقتضيات البشرية . وهم بحكم أنهم بشر مخلوقون لم يكونوا خالدين ، هذه هى سنه الله المطردة ، فليألوا أهل الكتاب الذين عرفوا الأنبياء من قبل إن كانوا هم لا يعلمون . لقد كان الرسل من البشر ليعيشوا حياة البشر ، فتكون حياتهم الواقعية

مصدق شريعتهم . وسلوكهم العملى نموذجاً حياً لما يدعون إليه الناس . فالكلمة الحية الواقعية هى التى تؤثر وتهدى ، لأن الناس يرونها ممثلةً فى شخص ، مترجمة إلى حياة . ولو كان الرسل من غير البشر لا يأكلون الطعام ، ولا يمشون فى الأسواق، ولا يعاشرون النساء ، ولا تعتلج فى صدورهم عواطف البشر ، وانفعالاتهم لما كانت هناك وشيجة بينهم ويقتدون . وأيما داعية لا يحس مشاعر الذين يدعوهم، ولا يحسون مشاعره ، فإنه يقف على هامش حياتهم ، لا يتجاوب معهم ، ولا يتجاوبون معه . ومهما سمعوا من قوله فلن يحركهم للعمل بما يقول . لما بينه وبينهم من قطيعة فى الحس والشعور وأيما داعية لا يصدق فعله قوله . فإن كلماته تقف على أبواب الأذان لا تتعداها إلى القلوب . مهما تكن كلماته بارعة ، وعباراته بليغة . فالكلمة البسيطة التى يصاحبها الانفعال ، ويؤيدها العمل هى الكلمة المثمرة التى تحرك الآخرين إلى العمل .

﴿ فَتَعَلَّوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . يعنى : فاسألوا يا أهل مكة العلماء " بالتوراة والانجيل " : هل كان الرسل الذين جاءوهم بشرا أم ملائكة ؟ . إن كنتم لا تعلمون ذلك . ويقول تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿

[سورة الأنبياء ١٠ : ١١] والمعنى : إن معجزة القرآن معجزة مفتوحة للأجيال ، ولقد كان به للعرب ومجدهم حين حملوا رسالته فشرفوا بها وغرّبوا . فلم يكن لهم قبله ذكْر ، ولقد ظلت البشرية تذكرهم وترفعهم طالما استمسكوا بهذا الكتاب ، وقادوا به للبشرية ، وانحط فيها ذكرهم ، وصاروا ذبيلاً للقافلة يتخطفهم الناس كما هو حالنا فى هذا العصر الأنكد . وكانوا بكتابهم – وهو القرآن – يتخطف الناس من حولهم . وهم آمنون . ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَنْخَطِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ

أَفِئَّةً لِّبَطْلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ [سورة العنكبوت: ٦٧]. أفلا يعقلون هذه النعمة فتؤمنون بما جاءكم به محمد - عليه الصلاة والسلام - ؟ .

ويقول الله - سبحانه وتعالى - فى المعنى ذاته وهو الحث على التفقه فى الدين فيقول - عزوجل - : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ [سورة الفرقان ٧٢ : ٧٣]. والمعنى : والذين إذا ذكروا بها أكبوا عليها سامعين بآذان واعية، مبصرين بعيون راعية ، وفى هذا تعريض بما عليه الكفار والمنافقون الذين إذا سمعوا كلام الله لم يتأثروا به ، ولم يتحولوا عما كانوا عليه ، بل يستمرون على كفرهم وعصيانهم ، وجهلهم وضلالهم ، فكأنهم صم لا يسمعون ، وعمى لا يبصرون .

ويقول - سبحانه وتعالى - أيضاً مؤكداً هذا المعنى وهو الدعوة إلى التفقه فى الدين : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (١٤) [سورة محمد: ١٤]. والمعنى : أفمن كان على بصيرة ويقين فى أمر الله ودينه بما أنزله فى كتابه من الهدى والعلم ، وبما فطره الله عليه من الفطرة السليمة ، فهو على علم بأن له رباً يجازيه على طاعته إياه بالجنة ، وأراه إياه جميلاً ، فهو على العمل به مقيم ، وعلى السير على نهجه دائب ، وإما من اتبع هواه ، وجمحت به شهواته ، فطفقت يعدوفى المعاصى، ويخب فيها ويضع ، غير ملتفت إلى واعظ أوزاجر . هل يستوى الفريقان؟ . من كان ثابتاً على حجة بينة من عند ربه . وهى كتابه الذى أنزل على رسوله - صلى الله عليه وسلم - وسائر الحجج التى أقامها فى الافاق والأنفس ، ومن زَيَّنَ له الشيطان سيء أعماله من الشرك وسائر المعاصى، كإخراجك من قريتك ، وإتباع هواه من غير أن يكون له شبهة يركن إليها

تُعاضد ما يدعيه ، وتطمئن إليها نفسه في الدفاع عما يُدُلُّ به ؟ . كلاهما لا يستويان .

ومثل الآية قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُكُمْ أَوْلُوا الْأَبْتَابِ ﴾ [سورة الرعد: ١٩]. وقوله - سبحانه وتعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ ﴾ [سورة الحشر: ٢٠]. ويقول " صاحب اللطائف " : قوله جلّ ذكره : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [سورة محمد: ١٤]. « البيّنة »: الضياء والحجّة، والاستبصار بواضح الحجّة : فالعلماء في ضياء برهانهم ، والعارفون في ضياء بيانهم ؛ فالبيان للعارفين والرهبان لأرباب العلم فهؤلاء بأحكام أدلة الأصول يُبصرون ، وهؤلاء بحكم الإلهام والوصول يستبصرون .

ومما لا ريب فيه أن القرآن الكريم يدعو إلى العلم والتعلم ، والتفقه في الدين ، فبالعلم والفقّه يبني الناس دولتهم ، وترتقى أمتهم ، وتتحضر دولهم . يقول الشاعر :

بالعلم والمال يبني الناس ملكهم لم يبن ملك على جهل واقبال

ولذلك كانت أول سورة تنزل من القرآن الكريم تدعو إلى العلم والتعلم ،

فقال - سبحانه وتعالى - : ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ [سورة العلق ١: ٥]. ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : " هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ " .

وقال - عليه الصلاة والسلام - : " خيركم من تعلم القرآن وعلمه ". فمن الأخلاق القرآنية الكريمة وإرشاداته وهدى دعوته إلى التفقه فى الدين وتحصيل العلوم والمعارف.^(١)

-
- 1- تفسير المراغى ج ٧ ، ص ٤١
□ ذاته ج ٩ ، ص ٥٦
□ تفسير ابن كثير ج ٢ ، ص ٤٠١
□ تفسير الفخر الرازى ج ١٦ ، ص ٢٢٥
□ روح المعانى للالوسى ج ١١ ، ص ٤٨
□ لطائف الاشارات للقشبرى ج ٢ ، ص ٧٢
□ ذاته ج ٣ ، ص ٤٠٧
□ فى ظلال القرآن الكريم ج ٤ ، ص ٢١٧٢ و ما بعدها ، ص ٢٣٦٨ ، ص ٢٣٧٠
□ صفوة التفاسير ج ٢ ، ص ٢٥٦

الإعراض عن اللغو

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة "الإعراض عن اللغو" والسفسطة ، وسفاسف الأمور ، فإن اللغو وكثرته يُوقِع الإنسان في المحاذير ، وتجعل المسلم يرتكب من الأخطاء ، ويقترف من الذنوب ، ويجترح من السيئات ما تنوء عن حمله الجبال الشوامخ . يقول الحق - سبحانه وتعالى - في هذا المعنى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [سورة المؤمنون: ٣] . والمعنى : الذين هم عن الباطل معرضون وهويتنظم الشرك والمعاصي ، وما لا فائدة فيه من الأقوال ، والأفعال ، كما قال الله - سبحانه وتعالى - : " وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا " . قال قتادة - رضي الله عنه - : " أتاهم والله من أمر الله ما وقفهم عن ذلك " .

وقوله - سبحانه وتعالى - أيضا : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۝٧٢ ﴾ [سورة الفرقان: ٧٢] . والمعنى : والذين لا يؤدون الشهادات الكاذبة ، ولا يساعدون أهل الباطل على باطلهم وينكرون أنفسهم عن سماع اللغو ، وما لا خير فيه ، كاللغو في القرآن ، وشتم الرسول - عليه الصلاة والسلام - والخوض فيما لا ينبغي ، وكان " عمر بن الخطاب " - رضي الله عنه - يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ، ويسخم وجهه . يعنى : " يطلّيه بمادة سوداء " ، ويحلق رأسه ، ويطوف به في الأسواق .

ومثل هذه الآية في المعنى قوله - سبحانه وتعالى - ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [سورة القصص: ٥٥] ومثل الآيات السابقة التي تعد من الأخلاق القرآنية الكريمة قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴾ [٨٣]

[سورة الزُّخْرُف: ٨٣]. والمعنى : أي اترك كفار مكة فى جهلهم وضلالهم ، يخوضون فى باطلهم ، ويلعبوا بدنياهم ، حتى ذلك اليوم الرهيب الذى وعدوه ، وهو يوم القيامة ، فسوف يعلمون حينئذ كيف يكون حالهم ومصيرهم ومآلهم .

وهذا توجيه إلهي يسجله القرآن الكريم ليكون إنذاراً وعبرة لمن كان له قلب لو ألقى السمع وهو شهيد ، وهذه الأخلاق القرآنية التى يرشدنا إليها الله - سبحانه وتعالى - أخلاق نافعة للمسلم فى دنياه وفى أخراه ، أما فى الدنيا فيكون بحب الناس له والتفافهم حوله ، وفى الآخرة بالفوز بجنات تجرى من تحتها الأنهار ، هذه هى السعادة الحقيقية التى يرشدنا إليها وإلى التمسك بها وبالفضائل التى وردت فى القرآن الكريم ، وهو حبل الله المتين الذى من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن استمسك به هدى إلى صراط مستقيم .

ويقول " صاحب اللطائف " : ﴿ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ [سورة الزُّخْرُف: ٨٣]. إذ ليس يفوت أمرهم ، وهم لا محالة سيلقون صغرهم . وفي هذا دليل على أنه لا ينبغي للعبد أن يغتر بطول السلامة فإن العواقب غير مأمونة . وقال تعالى لرسوله إذا أصروا على باطلهم من الشرك والعذاب على الله والافتراء عليه فذرهم يخوضوا فى باطلهم ويلعبوا فى دنياهم حتى يلاقوا الذى يوعدون وهو يوم عذابهم المعد لهم وذلك يوم القيامة . (١)

1 تفسير ابن كثير ج ٣ ، ص ٢٣٨

■ صفوة التفاسير ج ٣ ، ص ١٦٦

■ تفسير المراعى ج ٧ ، ص ٤٠ - ٤١

■ تفسير الكشاف للزمخشري

■ التفسير الكبير للفخر الرازى

■ لطائف الاشارات للقسيرى ج ٣ ، ص ٣٧٧

وصل ما أمر الله به أن يوصل

إن من الأخلاق القرآنية " وصل ما أمر الله به أن يوصل " ففى هذا الخلق صلة الأرحام ، والأقارب ، والخِلائن . وذلك يورث الألفة والمحبة ، ويغرس فى نفوس المسلمين بذور الوحدة التى تربط بين المسلمين قاطبةً حتى يصبحوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . وفى وصل ما أمر الله به أن يوصل مرضاة لله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - فى ذلك يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ [سورة الرعد: ٢١]. والمعنى : يقول ابن عباس - رضى الله عنهما - : " يريد الإيمان بجميع الكتب والرسل يعنى يصل بينهم بالإيمان وألا يفرق بين أحد منهم والأكثرين على أن المراد به صلة الرحم . وعن عبد الرحمن بن عوف قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « قال الله - تبارك وتعالى - : أنا الله . وأنا الرحمن . خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته أو قال : بترته » ^(١) . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعته الله » .

{ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ } يعنى أنهم مع وفائهم بعهد الله وميثاقه والقيام بما أمر الله به من صلة الرحم يخشون ربهم ، والخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه { وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ } .

1 أخرجه أبو داود والترمذي

حين البأساء ، وانما اشترط الإيمان مع فعل هذه المبار ، لأن من فعلها دون أن يكون مؤمناً لم ينتفع بها ، ولم يكن له ثواب عليها . حيث إنه لا ينفع ولا يفيد مع الكفر برولا عمل صالح فالأساس هو الإيمان بالله والتصديق برسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبما أنزل عليه وهو القرآن الكريم ، والإيمان بالملائكة والكتب والرسول وبالقضاء والقدر خيره وشره ، حلوة ومره ، وباليوم الآخر . عند ذاك تنفع أعمال البر والخير .⁽¹⁾

1 - مختصر تفسير القرآن الكريم للهازن ج ٢ ، ص ٦٦٥ ، ٥٦٦ ، ط . دار المسيرة - بيروت - لبنان .
■ تفسير المراغي ج ٥ ، ص ٩٣ ، ٩٤
■ صفوة التفاسير ج ٣ ، ص ٥٦٣
■ تفسير النكت و العيون للمواردى ج ٦ ، ص ٢٧٩ و ما بعدها .
■ تفسير المراغي ج ١٠ ، ص ١٦٣ بتصرف .

عدم السؤال عما لا يعينك

ومن الأخلاق القرآنية " عدم السؤال عما لا يُعينك " ولا يَخْصُك ، وهو من أخلاق القرآن والسنة ، يقول – صلى الله عليه وسلم – : " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " . والمعنى : دع ما يوقعك في الشك إلى ما لا يوقعك في الشك ، فهو خُلُق قرآني ، ونهج محمدي ، حتى يكون المسلم غير متطفل على الآخرين في شيء ، فيجب على المسلم ألا يتدخل في أمر من الأمور التي لا تُعنيه ولا تهمه ، ففي ذلك احترام لنفسه واحترام للآخرين . حتى لا يتعرض لأحد بإساءة أو حرج للشعور أو خدش للحياء . فالإسلام شديد الحرص على الحفاظ على مشاعر المسلم . بل على مشاعر الناس جميعاً ، وهذا خُلُق راق ومدنية وحضارة ما بعدها حضارة ، وهي حضارة القرآن الكريم والسنة .

وفى هذا المعنى يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُونَ عَنْ أَسْيَاءِ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ نَسَأُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ بُدِّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ [سورة المائدة ١٠١ : ١٠٢] . والمعنى : روى عن أنس بن مالك قال: خطب النبي صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط، قال "لوتعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا" قال: فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم لهم حنين. فقال رجل: من أبي؟ قال: "فلان"، فنزلت هذه الآية: "لَا تَسْأَلُونَ عَنْ أَسْيَاءِ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ نَسَأُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ بُدِّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ" .

فمن فتادة في قوله تعالى: { يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُونَ عَنْ أَسْيَاءِ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ } ، قال: فحدثنا أن أنس بن مالك حدثه : أن رسول الله - صلى

اللَّهُ عليه وسلم - سألوه حتى أحفوه بالمسألة ، فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر ، فقال: " لا تسألوا اليوم عن شيء إلا بينته لكم ". فأشفق أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يكون بين يدي أمر قد حَضَرَ ، فجعلت لا ألتفت يميناً ولا شمالاً إلا وجدت كُلاً لافاً رأسه في ثوبه يبكي ، فأنشأ رجل كان يُلاحى فيدعى إلى غير أبيه ، فقال : يا نبي الله ، من أبي؟ قال : " أبوك حذافة " . قال : ثم قام "عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أو قال : فأنشأ عمر- فقال: رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولا عائداً بالله - أو قال : أعوذ بالله- من شر الفتن قال : وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " لم أر في الخير والنشر كاليوم قط ، صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط " .

وإن صبرتم حين ينزل القرآن بحكم من فرض ، أو نهى ، أو حكم ، وليس في ظاهره شرح ما تحتاجون إليه ، ومشت حاجتكم اليه . فإذا سألتكم عنه فحينئذ يبدى لكم ، ومثال هذا : أن الله - عز وجل - لما بين عدة المطلقة ، والمتوفى عنها زوجها ، والحامل ، ولم يكن في عدد هؤلاء دليل على عدة التي ليست " ذات قرء " ولا " حامل " . فسألوا عنها ، فأنزل الله - عز وجل - جوابهم في قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَالَّتِي بَلَغَتْ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أُرْتَبِتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۗ ﴾ [سورة الطلاق: ٤].

" عفا الله عنها " . يعنى : عن مسألتكم عن الأشياء التي سألتكم عنها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التي كره الله لكم السؤال عنها فلم يؤاخذكم بها ، ولم يعاقبكم عليها. والله غفور لمن تاب منكم ، حلِيم فلا معجل بعقوبتكم . ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾ [سورة المائدة: ١٠٢]. يقول المفسرون:

"يعنى: قوم " صالح " - عليه السلام- سألوا الناقة ثم عقروها فأصبحوا بها كافرين.
و" قوم موسى"-عليه السلام - . حيث إنهم قالوا : " أرنا الله جهرة " . فكان هذا
السؤال وبالا عليهم . و" قوم عيسى"-عليه السلام- : فقد سألوا " نزول المائدة "
عليهم، ثم كذبوا بها . كأنه تعالى يقول : " إن أولئك سألوا فلما أعطوا سؤلهم كفروا
به ، فلا تسألوا أنتم شيئا فلعلكم إن أعطيتم سؤلكم ساءكم ذلك .

ويروى عن عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحِجُّوا » فقام محسن الأسدي وقال : أفي
كل عام يا رسول الله؟ . فقال : « أَمَا إِنِّي لَوَقُلْتُ نَعَمْ لَوَجِبَتْ ، وَلَوْ وَجِبَتْ ثُمَّ تَرَكَتُمْ
لَضَلَلْتُمْ ، اسْكُتُوا عَنِّي مَا سَكَتُ عَنْكُمْ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ
وَإِخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ » فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن
أَشْيَاءَ إِن بَدَلَكُمْ تَسْأَلُوا وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ الْقُرْءَانُ تُبَدِّلْكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ
غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ [سورة المائدة: ١٠١] . وقيل إنها نزلت في قوم سألوا رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - عن البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام . وهذا قول ابن
عباس - رضي الله عنهما - . وقد جعل الله نزول القرآن عند السؤال موجبا بتعجل
الجواب .

" عَفَا اللَّهُ عَنْهَا " . أي عن المسألة ، وقيل : إنهم " قريش " حيث انهم سألوا
النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يحول لهم جبل الصفا ذهباً . وقيل أنهم القوم
الذين سألوا النبي - عليه الصلاة والسلام - : من أبى ؟ ونحوه ، فلما أخبرهم به
أنكروه ، وكفروا به . وهذا هو رأي المتأخرين .

وفى المعنى ذاته يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ ،
فَقَالَ رَبِّ إِنِّي مِنَ أَهْلِ وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَبْنَوحُ إِنَّهُ .

وفى نفس المعنى يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [سورة الإسراء: ٣٦]. والمعنى : ولا تتبع ما لا تعلم ولا يتبعك بل تثبت من كل خبر. يقول قتادة - رضي الله عنه - : " لا تقل : رأيت ، ولم تر، وسمعت ، ولم تسمع ، وعلمت ، ولم تعلم ؛ فإن الله سائلك عن ذلك كله. لأن الإنسان سيسأل يوم القيامة عن حواسه : عن سمعه ، وبصره ، وقلبه ، عما أكتسبته جوارحه .

ويقول الله - عز وجل - فى هذا الخلق : ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۖ ﴾ [سورة الكهف: ٦٩: ٧٠]. والمعنى : قد شرط الخضر على سيدنا : موسى - عليه السلام - قبل بدء الرحلة أن يسأله من تصرفاته ولا يحاول استيضاح شيء ولا الاستفسار عن شيء من تصرفاته حتى يكشف له سرها ، فقبل " موسى - عليه السلام - ما اشترطه " الخضر " عليه رعاية لأدبه المتعلم مع العالم ، والمعنى : " لا تسألنى عن شيء مما أفعله حتى أُبينه لك بنفسى " حتى أحدث لك منه ذكرا . " حتى أوضحه وأبينه وأفسره لك دون أن تسألنى عنه وهذا هو الشرط الذى اشترط عليه قبل بدء رحلتها معاً .

يقول صاحب " اللطائف " فى معنى هذه الآية : " ليس للمريد أن يقول لشيخه : لم ؟ ولا للمتعلم أن يقول لأستاذه كيف ، ولا للعامي أن يقول للمفتي فيما يفني ويحكم . وقال ابن البنا فى تفسيره : يُؤخذ من هذه القصة : ترك الاعتراض على أولياء الله إذا ظهر منهم شيء مخالف للظاهر؛ لأنهم فيه على دليل غير ظاهر غيرهم ، اللهم إلا أن يدعوك إلى اتباعه ، فلا تتبعه إلا عن دليل ، ويُسلم له فى حاله ، ولا تعترض عليه ، ولا يمنعه ذلك من طلب العلم والتعلم منه ، وإن كنت لا تعمل

بعمله؛ لأنه لا يجب عليك تقليده إلا عن دليل ، فلا تعمل مثل عمله ، وأنت ترى أنه مخالف لك فى ظنك ، ولا علم لك بحقيقة باطن الأمر ، فلا تقف ما ليس لك به علم . وهذا منتهى الأدب والخلق فهذه بلا ريب توجيهات راشدة ، وسديدة نافعة ، وتعد بحق من الحكم الغوالى ، والكلم الغوالى . فلو أن كل مسلم التزم بها ، وجعل هذه المعانى وتلك الأخلاق نصب عينيه لربح فى الدنيا ، ويعد فى الآخرة . فهذه هى الأخلاق فى القرآن الكريم الذى يوجه المسلم إلى الأدب والتأدب مع الله ورسوله ، ومعلميه الخير فى كل زمان ، وعصر وأوان . (١)

1 لطائف الاشارات للقشيري ج ٢ ، ص ٤٠٩

- ❑ مختصر تفسير القرآن الكريم للخازن ، ج ١ ، ص ٣٣٣
- ❑ فسير النكت و العيون للماوردي ج ٢ ، ص ٧١ - ٧٢
- ❑ صفوة التفاسير للصابوني ج ٣ ، ص ١٠٧
- ❑ ذاته ج ٢ ، ص ١٥٩ بتصريف
- ❑ ذاته ج ٣ ، ص ١٩٩ بتصريف
- ❑ تفسير المراغى ج ٤ ، ص ٤٠ - ٤٢

التطوع

من الأخلاق التي وجهنا إليها القرآن الكريم " التطوع " . وهو قيام الليل وغيره من العبادات التطوعية التي تقرب العبد من ربه ، وتجعله دائماً يخافه ويخشاه ، وَيَحْذَرُ الآخرة ، ويرجو رحمة ربه ، وتناهى جنوبهم عن المضاجع داعين الله ربهم أثناء الليل ، وأطراف النهار لعله يرضى عنهم ، ويعمهم برحمته ، ويؤمنهم من عذابه فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم . وفى هذه المعانى يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾ [سورة الإسراء ٧٨ : ٧٩] . والمعنى : قم بعد نومك حيث إن التهجد لا يكون إلا بعد القيام من النوم ، والمراد من الآية " قيام الليل للصلاة " . وكانت صلاة الليل فريضة على النبي - صلى الله عليه وسلم - وعلى الأمة فى الابتداء وأول الأمر لقوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ ۝١ قُمْ لَيْلًا إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نَصْفَهُ ۚ وَأَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنْ أَسْتَلْقَىٰ عَلْتِكَ قَوْلًا نَقِيلًا ۝٥ إِنْ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ ﴾ [سورة المزمّل ١ : ٦] . ثم نزل " التخفيف " فصار الوجوب منسوخاً فى حق الأمة بالصلوات الخمس ، وبقي قيام الليل على الاستحباب ، و" نافلة لك " يعنى : زيادة لك . يريد فريضة زائدة على سائر الفرائض التي فرضها الله عليك .

روى عن السيدة الفضلى " عائشة بنت ابى بكر " - رضي الله عنهما - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " ثلاثة هن علي فريضة ، وهن سنة لكم ، الوتر، والسواك ، وقيام الليل " . وقيل الوجوب صار منسوخاً فى حق النبي أيضا - صلى الله عليه وسلم - كما هو فى حق الأمة فصار قيام الليل نافلة . لأن الله -

سبحانه وتعالى - قال : " نافلة لك " . ولم يقل : " نافلة عليك " . عسى ربك أن يبعثك مقاماً محموداً " . وقد أجمع المفسرون على أن " عسى " من الله واجب وذلك أن لفظة " عسى " تفيد الإطماع ومن أطمع إنساناً فى شيء ثم حرمه كان ذلك شاقاً عليه ، والله أكرم من أن يطمع أحداً ثم لا يعطيه ما أطمعه فيه . والمقام المحمود هو " مقام الشفاعة " لأنه يحمده فيه الأولون والآخرون .

ويقول " الماوردى " فى تفسيره : " أما الهجود فمن أسماء الأضداد ،

وينطلق على النوم وعلى السهر ، وشاهد انطلاقه على السهر قول الشاعر :

ألا زارت وأهل منى هُجُوداً وليت خيالها بمنى يعود
وشاهد انطلاقه على النوم قول الشاعر :

ألا طرقتنا والرِّفاق هُجُوداً فباتت بعلات النَّوالِ تجود
أما التهجيد فهو السهر ، وفيه وجهان :

أحدهما : السهر بالتيقظ لما ينفي النوم ، سواءً كان قبل النوم أو بعده .

الثاني : أنه السهر بعد النوم ، قاله الأسود بن علقمة .

وفي الكلام ضمير محذوف وتقديره : فتهجد بالقرآن وقيام الليل نافلةً أي

فضلاً وزيادةً على الفرض .

وفي تخصيص النبي صلى الله عليه وسلم بأنها نافلة له ثلاثة أوجه :

أحدها : تخصيصاً له بالترغيب فيها والسبق إلى حيازة فضلها ،

اختصاصها بكرامته ، قاله علي بن عيسى .

الثاني : لأنها فضيلة له ، ولغيره كفارةً ، قاله مجاهد .

الثالث : لأنها عليه مكتوبةٌ ولغيره مستحبةٌ ، قاله ابن عباس .

﴿..عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [سورة الإسراء: ٧٩]

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن المقام المحمود الشفاعة للناس يوم القيامة ، قاله حذيفة بن

اليمان .

الثاني : أنه إجلاله على عرشه يوم القيامة ، قاله مجاهد .

الثالث : أن إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة .

ويحتمل قولاً رابعاً : أن يكون المقام المحمود شهادته على أمته بما

أجابوه من تصديق أو تكذيب ، كما قال تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ

بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [سورة النساء: ٤١] .

ويقول صاحب اللطائف : الليل لأحد أقوام : لطالي النجاة وهم

العاصون مَنْ جَتَحَ مِنْهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ ، أو لأصحاب الدرجات وهم الذين يَحِدُّونَ فِي

الطاعات ، ويسارعون فِي الخيرات ، أو لأصحاب المناجاة مع المحبوب عندما يكون

الناس فيما هم فيه من الغفلة والغيبة . ويقال الليل لأحد رجلين : للمطيع

والعاصي : هذا فِي احتيال أعماله ، وهذا فِي اعتذاره عن قبيح أفعاله .

والمقام المحمود هو المخاطبة فِي حال الشهود ، ويقال الشهود . ويقال

هو الشفاعة لأهل الكبائر . ويقال هو انفراده يوم القيامة بما خصَّ به - صلى الله

عليه وسلم - بما لا يشاركه فيه أحد .

وفى المعنى : ذاته يقول الحق - سبحانه وتعالى - ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ

الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [٦٣] وَالَّذِينَ

يَسْتَوُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ [سورة الفرقان ٦٣ : ٦٤] . والمعنى : يبيتون

سجدا وقياماً فى طاعته وعبادته كما قال الله تعالى : ﴿ نَسْجَدُ لِرَبِّهِمْ عَنِ

الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [سورة السجدة: ١٦] .

وقوله : أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه "وقال

تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا

﴿ ٦٥ ﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقْرَأً وَمُقَامًا ﴿ [سورة الفرقان ٦٥: ٦٦]. يعنى : عذاباً ملازماً دائماً . كما قال الشاعر:

إن يعذب يكن غراما وإن يعط
جزىلا فإنه لا يبالي

ولهذا قال الحسن - رضي الله عنه - في قوله { إِنَّكَ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا } كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام وإنما الغرام الملازم ما دامت السموات والأرض وكذا قال سليمان التيمي وقال محمد بن كعب { إِنَّكَ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا } يعنى ما نعموا في الدنيا إن الله تعالى سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه فأعزهم فأدخلهم النار لقوله: { إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقْرَأً وَمُقَامًا } أي بئس المنزل منظراً وبئس المقيلاً مقاماً .

ويقول صاحب اللطائف : " يبيتون لربهم ساجدين ، ويصبحون واجدين ؛ فَوَجِدُ صباحهم ثمراتُ سجودِ أرواحهم ، كذا في الخبر : « مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ حَسَنٌ وَجْهَهُ بِالنَّهَارِ » أي عَظُمَ ماءُ وجهه عند الله ، وأحسنُ الأشياءِ ظاهرٌ بالسجودِ مُحَسَّنٌ وباطنٌ بالوجودِ مُزَيَّنٌ . ويقال متصفين بالسجود قياماً بأداب الوجود .

يقول الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الزمر: ٩] . والمعنى : أم من هو مطيع عابد فى ساعات الليل يتعبد ربه فى صلاته ساجداً أو قائماً كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً ؟ .

يقول القرطبي : " بين - سبحانه وتعالى - أن المؤمن ليس كالكافر فالمؤمن يخشى ربه ، ويخافه ويتقيه راجياً الجنة فى الدار الآخرة فهل يستوى هذا المؤمن التقى مع ذلك الكافر الفاجر ؟ . مما لا ريب فيه أنهم لا يستون عند الله -

سبحانه وتعالى - . ثم يضرب الله مثلاً فيقول : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون يعنى : هل يتساوى العالم والجاهل ؟ . فكما أنه لا يستوى هذان كذلك لا يستوى المطيع والعاصى ؟ . إنما يعتبر ويتعظ أصحاب العقول السليمة .

يقول الإمام الفخر الرازى : " واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة ، فأولها أنه بدأ فيها بذكر العلم وختم فيها بذكر العلم ، أما العمل فكونه قائماً ساجداً قائماً ، وأما العلم فقوله تعالى : { هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين ، فالعمل هو البداية والعلم والمكاشفة هو النهاية . أنه تعالى نبه على أن الانتفاع بالعمل إنما يحصل إذا كان الإنسان مواظباً عليه ، فإن القنوت عبارة عن كون الرجل قائماً بما يجب عليه من الطاعات ، وذلك يدل على أن العلم إنما يفيد إذا واطب عليه الإنسان ، وقوله : { سَاجِدًا وَقَائِمًا } إشارة إلى أصناف الأعمال وقوله : { يَحْذَرُ الْأَخْرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ } إشارة إلى أن الإنسان عند المواظبة ينكشف له في الأول مقام القهر وهو قوله : { يَحْذَرُ الْأَخْرَةَ } ثم بعده مقام الرحمة وهو قوله : { وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ } ثم يحصل أنواع المكاشفات وهو المراد بقوله تعالى : { هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } وفى الكلام حذف ، وتقديره " أمن هو قانت كغيره ؟ . وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه ، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر ، ثم مثل بالذين يعلمون ، وفيه تنبيه عظيم على فضيلة العلم .

ويقول صاحب اللطائف : " القنوت هو القيام ، وقيل طول القيام . والمراد هو الذي يقوم بحقوق الطاعة أوقات الليل والنهار ؛ أي في جميع الأوقات . والهمزة للاستفهام أي أمن هو قانت كمن ليس بقانت ؟ أمن هو قانت كالكافر الذي جرى ذكره ؟ أي ليس كذلك . ويقال القنوت القيام بأداب الخدمة ظاهراً وباطناً من غير

فتور ولا تقصير. « يَحْذَرُ » العذابَ الموعودَ في الآخرة ، « ويرجو » الثوابَ الموعودَ .
وأراد بالْحَذَرِ الخوفَ . ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو
الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة الزُّمَر: ٩]. أي هل يستويان؟ هذا في أعلى الفضائل وهذا في
سوء الرذائل! { الَّذِينَ يَعْلَمُونَ } .

وقد روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " كل قنوت في
القرآن فهو طاعة لله - عز وجل - . " وروي عن جابر عن النبي - صلى الله عليه وسلم -
أنه سئل أي الصلاة أفضل ؟

فقال: " طول القنوت " وتأوله جماعة من أهل العلم على أنه طول القيام .
روى عبد الله عن نافع عن ابن عمر سئل عن القنوت فقال: ما أعرف
القنوت إلا طول القيام، وقراءة القرآن. وقال مجاهد: من القنوت طول الركوع
وغض البصر. وكان العلماء إذا وقفوا في الصلاة غضوا أبصارهم، وخضعوا ولم
يلتفتوا في صلاتهم، ولم يعبثوا ولم يذكروا شيئاً من أمر الدنيا إلا ناسين. قال
النحاس: أصل هذا أن القنوت الطاعة، فكل ما قيل فيه فهو طاعة لله عز وجل،
فهذه الأشياء كلها داخلة في الطاعة وما هو أكثر منها كما قال نافع: قال لي ابن
عمر قم فصل فقامت أصلي وكان عليّ ثوب خلق، فدعاني فقال لي: رأيت لو
وجهتك في حاجة أكنت تمضي هكذا؟ فقلت: كنت أتزين قال: فالله أحق أن
تتزين له.

ويقول ابن عباس - رضي الله عنه - إن هذه الآية نزلت في سيدنا " أبي
بكر الصديق " - رضي الله عنه - . ويقول عبد الله ابن عمر - رضي الله عنهما -
إنها نزلت في سيدنا " عثمان بن عفان " - رضي الله عنه - . ويقول مقاتل - رضي
الله عنه - : انها نزلت في سيدنا " عمار بن ياسر " - رضي الله عنه - . " ولا

يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون حيث ان هذا فى أعلى الفضائل ، وذاك فى سوء الرذائل أى ان الذين يعلمون من أهل الفضائل ، والذين لا يعلمون من أهل السوء والرذائل . والعلم فى وصف المخلوق على ضربين :

أحدهما : محبوب مكتسب للعبد

ثانيهما : موهوب من قبل الله سبحانه .

ويقال مصنوع وموضوع . ويقال علم برهان وعلم بيان؛ فالعلمُ الدينيُّ كُلُّها برهانية إلا ما يحصل بشرط الإلهام .

وفى المعنى نفسه يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا مُّجْتَدِدًا بَيْنْتَهُمْ فِضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [سورة الفتح: ٢٩].

والمعنى : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو رسول الله حقاً ، وليس كما يقول المشركون ، والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، يعنى : إن أصحابه الأخيار غلظوا على الكفار ، متراحمون فيما بينهم . لقوله تعالى : ﴿ اذِّقْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَاقَهُمْ عَلَى الْكٰفِرِينَ ۝ ﴾ .

يقول " أبو السعود " فى تفسيره لهذه الآية : " وذلك أنهم يُظهرون لمن خالفَ دينَهُمُ الشَّدَّةَ وَالصَّلَابَةَ وَلِنَ وَافِقَهُمْ فِي الدِّينِ الرَّحْمَةَ وَالرَّافَةَ . " . يقول المفسرون ، وذلك أن الله أمرهم بالغلظة عليهم . قال تعالى : ﴿ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ . وقد بلغ من تشديدهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تمشى أبدانهم ، وكان الواحد منهم إذا رأى أخاه فى الدين صافحة وعانقه . وتراهم مع ذلك كله ركعاً

سجداً ، وذلك من كثرة صلاتهم وعبادتهم ، رُهباً بالليل أسود بالنهار . يطلبون بعبادتهم هذه رحمه الله ورضوانه .

يقول " ابن كثير " - رحمه الله تعالى - : " وقوله سبحانه وتعالى : { تَرَبُّهُمْ رُكْعًا سَجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا } [سورة الفتح: ٢٩] وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهي خير الأعمال ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب وهو الجنة المشتملة على فضل الله عز وجل وهو سعة الرزق عليهم ورضاه تعالى عنهم وهو أكبر من الأول كما قال جل وعلا : { وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ } وقوله جل جلاله : { سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ } قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : سيماهم في وجوههم يعني السمات الحسن وقال مجاهد : يعني الخشوع والتواضع { سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ } قال : الخشوع قلت : ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه فقال : ربما كان بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون . وقال السدي : الصلاة تحسن وجوههم وقال بعض السلف : من كثرت صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار . عن أبي سفيان عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كثرت صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار " . وقال بعضهم : إن للحسنة نوراً في القلب وضياءً في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الناس .

يقول الإمام " القرطبي " : لاحت في وجوههم علامات التهجد ، وأمارات السهر ، قال ابن جريح : " هو الوقار والبهاء . ويقول مجاهد - رضي الله عنه - أيضاً : هو الخشوع والتواضع . يقول " منصور " سألت مجاهد عن قوله تعالى " سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ " . أهو أثر يكون بين عيني الرجل ؟ قال لا ، ربما يكون بين

عيني الرجل مثل ركبة العنز وهو أقسى قلباً من الحجارة ! ولكنه نور في وجوههم من الخشوع .

ذلك وصفهم في التوراة : " الشدة على الكافرين ، والرحمة بالمؤمنين ، وكثرة الصلاة والسجود ، ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج فراخه ، وفروعه ، فقواه حتى صار غليظاً ، فقام الزرع واستقام على أصوله ، وهذا الزرع يعجب الزراع ، وذلك لقوته ، وكثافته ، وحسن منظره ، ليغتاظ بهم الكفار .

يقول الضحاك : " هذا مثل في غاية البيان ، فالزرع هو محمد - صلى الله عليه وسلم - والشطاء أصحابه ، كانوا قليلاً فكثروهم ، وضعفاء فقعدوا . يقول "القرطبي" : وهذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، يعني أنهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم حين بدأ بالدعاء إلى دينه ضعيفاً فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوي أمره ، كالزرع يبذو بعد البذر ضعيفاً فيقوى حالاً بعد حال حتى يغلظ نباته وأفراخه .

فكان هذا من أصح مثل وأقوى بيان . وقال قتادة : مثل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع ، يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر .

هوؤلاء وعدهم الله بالمغفرة التامة ، والأجر العظيم ، والرزق الكريم في جنات النعيم . اللهم ارزقنا محبتهم . ومحبة من يحبهم يا رب العالمين إلى يوم نلقاهم فيه في الفردوس الأعلى بمحمد وحزبه . - صلى الله عليه وسلم - .

ويقول صاحب اللطائف : " هي في القيامة يوم تبيض وجوه وأنهم يكونون غراً محجلين . ويقال « معه » أبوبكر ، و { أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ } عمر؛ و { رُحَمَاءُ

بَيْنَهُمْ { عثمان ، وَ{ تَرَنَّهُمْ رُكْعًا سَجْدًا } علي رضي الله عنهم . وقيل : الآية عامة في المؤمنين .

ويميض القرآن الكريم في الحديث عن هذا الخلق فيقول—سبحانه وتعالى:

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَيَأْتِيهِمْ لَيْلٌ سَجْدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة الذاريات: ١٨].

والمعنى : كانوا ينامون القليل من الليل ، ويتهجدون في معظمه . يقول ابن عباس — رضي الله عنهما - : قلَّ ليلة تأتي عليهم لا يصلون فيها لله ، عز وجل ، إما من أولها وإما من أوسطها. وقال مجاهد: قلَّ ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون. وكذا قال قتادة. وقال أنس بن مالك، وأبو العالية: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء. وقال أبي جعفر الباقر، كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة.

كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ونومهم . وقال الحسن البصري: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا

مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة الذاريات: ١٧] : كَابَدُوا قِيَامَ اللَّيْلِ ، فلا ينامون من

الليل إلا أقله ، ونشطوا فمدوا إلى السحر، حتى كان الاستغفار يسحر. وقال قتادة :

قال الأحنف بن قيس: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة الذاريات: ١٧]:

كانوا لا ينامون إلا قليلاً ثم يقول: لست من أهل هذه الآية. وقال الحسن البصري :

كان الأحنف بن قيس يقول: عرضت عملي على عمل أهل الجنة ، فإذا قوم قد

باينونا بوناً بعيداً ، إذا قوم لا نبلغ أعمالهم، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون.

وعرضت عملي على عمل أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم يكذبون بكتاب الله

وبرسل الله، يكذبون بالبعث بعد الموت، فوجدت من خيرنا منزلة قومًا خلطوا عملاً

صالحاً وآخر سيئاً.

ويقول — سبحانه وتعالى - : ﴿ يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ﴿١﴾ فَرِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ يَصْفَهُ أَوْ

أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْزِدَ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ

نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَبَتَّلْ
إِلَيْهِ بَتِّيلاً ﴿٨﴾ [سورة المزمل: ١: ٨].

والمعنى : يا أيها النبي المتزمل في ثيابه ، المتهيئ للصلاة ، قم عليها الليل كله إلا قليلا وهو النصف أو انقص من النصف ، أو زد علي النصف إلى الثلثين فهو عليه السلام قد خير بين الثلث ، والنصف ، والثلثين . وقصارى القول أنه أمر أن يقوم نصف الليل ، أو يزيد عليه قليلا ، أو ينقص منه قليلا ولا حرج عليه في واحد من الثلاثة ، وبعد أن أمره بقيام الليل أمره بترتيل القرآن فقال : ورتل القرآن ترتيلا . يعنى أقرأه على مهل وتؤدة ، وأناة ، وتبصر . فإن ذلك أعون على فهمه وتدبره . وكذلك كان – صلى الله عليه وسلم – يفعل ذلك قالت السيدة الفضلى "عائشة بنت أبى بكر" – رضي الله عنهما – : كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها " . وجاء في الحديث : " زينوا القرآن بأصواتكم " . ولقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود ، يعنى أبى موسى الاشعرى ، فقال " أبوموسى الاشعرى " لو كنت أعلم أنك كنت تسمع قراءتى لحببته لك تحبيراً . وعن ابن مسعود أنه قال : لا تنتروه نثر الرمل ولا تهدوه هد الشعر ،

وأخرج العسكرى فى كتابه " المواعظ " عن علىّ – كرم الله وجهه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " سئل عن هذه الآية فقال : " بينه تبينا ولا تشره نثر الدقل " . والدقل هو أردأ التمر . ولا تهذه . يعنى : " لا تسرع به " هذ الشعر ، قفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة . وعن عبد الله بن مغفل قال : " رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوم فتح مكة على ناقته يقرأ سورة الفتح فرجع فى قراءته ١ .

وعن جابر قال : " خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نقرأ القرآن وفينا العجمي والعربي فقال : إقرأوا بكل حسن وسيجيء أقوام يتعجلونه ولا يتأجلونه لا يجاوز تراقيهم . "

يقول صاحب فتح البيان : " المقصود من التنزيل إنما هو حضور القلب عند القراءة ، وليس مجرد إخراج الحروف من الحلقوم والحكمة فى التنزيل هوالتمكن من التأمل فى حقائق الآيات ودقائقها ، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر عظمته وجلاله ، وعند الوصول إلى الوعد والوعيد يحصل الرجاء والخوف ، ويستنير القلب بنور الله . فإن الإسراع فى القراءة تدل على عدم الوقوف على المعانى . وإنا سننزل عليك يا رسول الله القرآن وفيه الأمور الشاقة عليك وعلى أتباعك من أوامر ، ونواهٍ . فلا تُبالي بهذه المشقة ، وامرن عليها لما بعدها . ويقول الحسن ابن الفضل : " ثقيلًا : يعنى لا يحمله الا قلب مؤيد بالتوفيق ، ونفس مزينة بالتوحيد ، ويقول " ابن زيد " : " هو والله ثقيل مبارك ، كما ثقل فى الدنيا ينقل فى الآخرة فى الميزان " . وقد يكون المراد إنه ثقيل فى الوحي ، فقد جاء فى الحديث : " عن عائشة أم المؤمنين أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يأتيني أحياناً فى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي ؛ فيفصم عني وقد وعيت ما قال ؛ وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً ؛ فيكلمني ، وأعي ما يقول ، قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن

جبينه ليتفصد عرقاً" ^١. يعنى يجرى عرقه كما يجرى الدم من الفاسد - يعنى الحمام - .

ولأن قيام الليل أشد مواظاة وموافقة بين القلب واللسان ، وأجمع للخاطر فى أداء القراءة وتفهمها ، وهو أفرغ للقلب من النهار ، لأنه وقت انتشار الناس ، ولغط الأصوات ، والبحث عن أمور المعاش ، ومن ثم قال : ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ (سورة المزمل: ٧). والمعنى : إن لك فى النهار تتفرغ فيه للعبادة ، فعليك بالتهجد ، فإن مناجاة الله - عز وجل - يعوذها الفراغ والتخلى عن العمل ، وقم على ذكره ليلاً ونهاراً بالتسبيح والتهليل والتحميد والصلاة وقراءة القرآن ، وانقطع إليه بالعبادة ، وجرده اليه نفسك ، واعرض عما سواه .

ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ (سورة الشرح: ٧). أى فإذا فرغت من شئونك ، فانصب فى طاعته وعبادته ، لتكون فارغ القلب ، خالياً من الهواجس ، والوساوس الدنيوية . ثم بين الله - عز وجل - السبب فى الأمر بالذكر والتبتل فقال - سبحانه وتعالى - : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (سورة المزمل: ٩). وفى مثل هذه المعانى ، وهى التطوع والتبتل والتحميد والتهليل يقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ (٢٤) ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (٢٥) ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ (٢٦) [سورة الإنسان: ٢٤: ٢٦]. والمعنى : وصل بعض الليل كصلاة المغرب والعشاء ، وتهجد له طائفة من الليل ، ومثله قوله تعالى : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ، نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [سورة الإسراء: ٧٩]. وقوله - عز وجل - : ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَرْمِلُ ١ فَوَاللَّيْلِ إِذَا قَلِيلًا ٢ نَصْفَهُ ٣ أَوْانْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا ٣ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ

تَرْتِيلاً ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ [سورة المزمل: ١: ٧].

ويقول صاحب اللطائف في معنى هذه الآية: "الفرض في الأول ثم النفل" حيث إن الصلاة جاءت في الأول - بكرة واصيلاً - صلاة الصبح ثم الظهر والعصر. و"من الليل" يعني المغرب والعشاء، ثم من بعد ذلك النفل "وسبحه ليلاً طويلاً". لأنه تطوع، وقيل أنه خاص بالنبى - صلى الله عليه وسلم - وقيل إنه عام لجميع المؤمنين. (١)

-
- 1- مختصر تفسير القرآن الكريم للخازن ج ٣، ص ٧٥٨ وما بعدها .
 - النكت و العيون للماوردي ج ٣، ص ٢٦٤ - ٢٦٦ .
 - لطائف الاشارات للقسيري ج ٢، ص ٣٦٤ وما بعدها، ص ٣٢٥، ج ٢، ص ٦٤٩ .
 - تفسير ابن كثير ج ٣، ص ٣٢٥ .
 - تفسير القرطبي ج ١٥، ص ٢٣٨، ج ١٦، ص ٢٩٣ - ٢٩٥ .
 - حاشية زادة على البيضاوي ج ٣، ص ١٩٤ .
 - التفسير الكبير ج ٢٦، ص ٢٥٠ .
 - لطائف الاشارات ج ٣، ص ١٧١ وما بعدها، ص ٤٣٢ وما بعدها ص ٦٦٨ .
 - تفسير أبو السعود ج ٥، ص ٨٦ .
 - مختصر تفسير ابن كثير ج ٣، ص ٣٥٥ .
 - تفسير المراغي ج ٩، ص ١٧٩ .
 - ذاته ج ١٠، ص ١١١ - ١١٣ .
 - ذاته ج ١٠، ص ١٧٥ .

تقديم المشيئة

من الأخلاق التي وجهنا إليها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة "تقديم المشيئة" في كل شيء يقوم به المسلم . فواجب عليه أن يقدم المشيئة . أن كل شيء بإرادة الله – سبحانه وتعالى – وبيده مقاليد الأمور ، كما أن في تقديم المشيئة ذكر لله ، وعبادة له ومرضاة ، حيث إن تقديم المشيئة يذكره دائماً بخالقه ، الذي بيده الأمر ، ومالك الملك – سبحانه وتعالى – ومن الآيات التي وردت في القرآن الكريم تدعو إلى التخلق بهذا الخلق قول الله – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا ارشاداً ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الكهف: ٢٣: ٢٤] ولا تقولن لشيء عزمتم عليه: إني سأفعله غداً ، إلا إذا قرنته بالمشيئة فقلت : " إن شاء الله " .

يقول ابن كثير: " هذا إرشاد من الله لرسوله الله صلوات الله وسلامه عليه، إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل، أن يرد ذلك إلى مشيئة الله، عز وجل، علام الغيوب، الذي يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كما ثبتت في الصحيحين عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : قال سليمان بن داود عليهما السلام : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة - وفي رواية تسعين امرأة. وفي رواية: مائة امرأة- تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله ، فقيل له - وفي رواية : فقال له الملك- قل: إن شاء الله . فلم يقل فطاف بهن فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان" ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " والذي نفسي بيده، لو قال: " إن شاء الله " لم يحنت ، وكان دركاً لحاجته " ، وفي رواية : " ولقاتلوا في سبيل الله فرسائاً أجمعون .

وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول النبي صلى الله عليه وسلم، لما سئل عن قصة أصحاب الكهف : " غداً أجيبيكم". فتأخر الوحي

خمسة عشر يوماً . وإذا نسيت أن تقول " إن شاء الله " . ثم تذكرت فقلها لتبقى نفسك مستشعرة عظمة الله ، لعل الله يوفقني ويرشدني إلى ما هوأصلح من أمر ديني ودينباي . " وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا " . يقول ابن كثير: " أي إذا سئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك .

ويقول صاحب اللطائف : " إذا كانت الحوادث صادرةً عن مشيئة الله فَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ لم يَعُدَّ من نفسه ما علم أنه لا يتم إلا بالله .

ويقال مَنْ عَرَفَ اللَّهَ سقط اختياره عند مشيئته ، واندرجت أحكامه في شهوده لحكم الله . ويقال المؤمن يعزم على اعتناق الطاعة في مستقبله بقلبه ، لكنه يتبرأ عن حوله وقوته سيره ، والشرع يستدعي منه نهوض قلبه في طاعته ، والحق يقف سيره عند شهود ما منه لمحوبه تحت جريان قسمته . والمعنى : أنه قد يبدو في الظاهر أن للعبد ارادة في الامتثال للطاعة وفي إجراء أحكام الشريعة ، ولكن في الحقيقة أن الحق – سبحانه وتعالى – يتولى تبرأته من حوله وارادته وتهيئة سره للتجرد عن كل غير وسوى ،

وفي المعنى ذاته يقول الحق – سبحانه وتعالى - : ﴿ وَوَلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنُّنًا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ [سورة الكهف: ٣٩] . والمعنى : فهلا حين دخلت حديقتك ، وأعجبت بما فيها من الأشجار والثمار قلت : " هذا من فضل الله ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا قدرة لنا على طاعته الا بتوفيقه ومعونته " . وهنا يقول المؤمن للكافر : إن كنت ترى أنى أفقر منك ، وتعزز علي بكثرة مالك وأولادك ، فأنى مؤمن بأن هذا من صنع الله ، وتفضله وإحسانه ، والله – سبحانه وتعالى – قادر على أن يقلب ما بى ، وما بك من الفقر والغنى ، فيرزقنى جنةً خيراً من جنتك ، يعنى حديقة خير من حديقتك ، وذلك لإيماني به ، فيرسل الله عليها آفة تجتاحها ، أوصواعق من السماء تدمرها ، فتصبح الحديقة أرضاً ملساء لا تثبت عليها قدم ، جرداء لا نبات فيها ولا

شجر، أو يغور ماؤها في الأرض فيتلف كل ما فيها من الزرع والشجر، وحينئذ لا تستطيع طلبه، فضلاً عن إعادته ورده.

ويقول الإمام الشهيد " سيد قطب " فى ظلّله : ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَنُكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنَّا أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَا لَا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَنُصِصِحَ صَعِيدَازَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ [سورة الكهف: ٣٧: ٤١]

وهكذا تنتفض عزة الإيمان في النفس المؤمنة، فلا تُبالي المال والنفر، ولا تداري الغنى والبطر، ولا تتلعثم في الحق، ولا تجامل فيه الأصحاب. وهكذا يستشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال. وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة، وأن فضل الله عظيم وهو يطمع في فضل الله. وأن نقمة الله جبارة وأنها وشيكة أن تصيب الغافلين المتبشرين.

ويقول المراعى فى تفسيره : " هلا إذا أعجبتك جنتك حين دخلتها ونظرت إليها، وحمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك، وقلت: " الأمر ما شاء الله، والكائن ما قدره الله ". ليكون ذلك منك اعترافاً بالعجز، وبأن كل خير بمشيئة الله وفضله، وهلا قلت: لا قوة إلا بالله، إقراراً منك بأن ما قويت به على عمارتها، وتدبير أمرها، فانما هو بمعونة الله وتأيبده. وبعد أن نصح الكافر بالإيمان، وأبان له عظيم قدرة الله، وكبير سلطانه، اجابه عن افتخاره بالمال والنفس، ورد على قوله: " أنا أكثر منك مالاً وولداً فقال:

﴿ فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَنُصِصِحَ صَعِيدَازَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ [سورة الكهف: ٤٠: ٤١]. والمعنى: إن ترن أيها الرجل أفقر منك فإنى أرجو الله أن يقلب الآية ويجعل ما بى بك، ويرزقنى الغنى، ويرزقنى لإيمانى جنة خيراً من جنتك، بأن يرسل عليها

مطراً والسماء بقلع زروعها وأشجارها ، أو يجعل ماءها يغور فى الأرض ، فلن تطبيق أن تدركه بعد غوره بطلبك إياه .

وفى معنى المشيئة يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿لَا يَسْتَنْوَنَ ۝١٨﴾ [سورة القلم: ١٨]. والمعنى : أنهم حين حلفوا ليجدن ثمارها غدوة حتى لا يعلم بهم سائل ولا فقير ، فبتوا فرلهم ما كان يأخذه هؤلاء الفقراء ، ولم يستثنوا عما هموا به ، فجازاهم الله بكفرهم لهذه النعم التى أنعم الله بها عليهم ، فطرق تلك الجنة طارق من أمر الله وهم نيام، إذ أرسل عليها صاعقةً فاحترقت ، وصارت تشبه الليل البهيم فى السواد .

ويقول صاحب " صفوة التفاسير " : " وَلَا يَسْتَنْوَنَ " . أى : ولم يقولوا إن شاء الله حين حلفوا ، كأنهم واثقون من الامر. ويقول الله – سبحانه وتعالى – فى المعنى نفسه : ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾ [سورة المدثر: ٥٥: ٥٦]. والمعنى : وما يتعضون به الا أن يشاء الله لهم الهدى فيتفكروا ويتعضوا ، وفيه تسلية للنبي – صلى الله عليه وسلم – ، وترويح عن قلبه الشريف ، مما كان يخامر من إعراضهم وتكذيبهم له ، وهو – سبحانه وتعالى – أهل لأن يتقى لشدة عقابه ، وأهل لأن يغفر الذنوب لكرمه ، وسعة رحمته .

يقول الألوسى : " حقيق بأن يتقى عذابه ويؤمن به ويطاع { وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ } حقيق بأن يغفر جل وعلا لمن آمن به وأطاعه . وعن أنس أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قرأ هذه الآية " هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ " فقال : قد قال ربكم أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معي إله فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً آخر، فأنا أهل أن أعفله " . وعن أبي هريرة وابن عمرو وابن عباس عن الحسن قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : الله تعالى إنى لأجدني استحي من عبدي يرفع يديه إليّ ثم يردهما من غير مغفرة قالت الملائكة : إلهنا ليس لذلك بأهل . قال الله تعالى : لكني أهل التقوى وأهل المغفرة أشهدكم أني قد غفرت له " . وكأن الجملة لتحقيق التهيب والترغيب اللذين أشعر بهما الكلام السابق كما لا يخفى على

والمعنى : وما تقدرُونَ على شيءٍ إلا بتوفيق الله ولطفه ، فاطلبوا من الله التوفيق إلى أفضل طريق . ويقول المراغى فى تفسيره : " إن إرادتكم الخير لا تحصل لديكم إلا بعد أن يخلقها الله فيكم بقدرته ، الموافقة لإراداته ، فهو الذى يُودع فيكم إرادة فعل الخير فتنصرف هممكم إليه ، ولو شاء لسلبكم هذه الإرادة ، وجعلكم كالحيوانات التى لا إرادة لها . وفى قوله تعالى " رَبُّ الْعَالَمِينَ " . بيان لعله هذا ، فإنه لما كان رب العالمين ، وهو الذى منحكم كل ما تتمتعون به من القوى كالإرادة وغيرها ، وهو صاحب السلطان عليكم كانت إرادتكم مستندة إلى إرادته ، وخاضعة لسلطانه ، فلو شاء أن يوجهها إلى غير ما وجهت له توجهت ، ولو شاء أن يحوها محيت ، فله الأمر ، وله الحُكم ، وهو على كل شيء قدير .

هذه أخلاق القرآن الكريم ، فيحب على المسلم أن يتخلق بها المسلم وأن يجعلها نصب عينيه ، وأن يتذكرها كلَّ طرفة عين ، وهو تقديم المشيئة فى كل أمر من الأمور ، مع الاعتقاد الصارم بأن الله - سبحانه وتعالى - خالق كل شيء ، ومدبر كل شيء ، وعالم بكل شيء ، فإن أفعاله كلها لا تخلو من حكمة ، فعلى المسلم الإيمان والتسليم .

1 - صفوة التفاسير ، ج ٢ ، ص ١٨١ .

□ ذاته ص ١٩٢ .

□ ذاته ج ٣ ، ص ٤٢٧ .

□ ذاته ص ٤٩٧ .

□ زاد المسير ج ٥ ، ص ١٢٦ .

□ تفسير ابن كثير ج ٣ ، ص ٧٩ .

□ ذاته ج ٤ ، ص ٤٥٨ .

□ لطائف الإشارات ج ٢ ، ص ٣٨٩ و ما بعدها .

□ فى ظلال القرآن الكريم ج ٤ ، ص ٢٢٧١ .

□ تفسير المراغى ج ٥ ، ص ١٥١ .

□ ذاته ج ١٠ ، ص ٣٦ ، ص ١٤٢ و ما بعدها .

□ ذاته ج ١٠ ، ص ٦١ و ما بعدها .

□ روح المعانى للالوسى ج ٢٩ ، ص ١٣٥ .

الكلام الطيب

إن القرآن الكريم يوجهنا ويرشدنا إلى حسن الخلق ، ولا يكون ذلك إلا بالكلمة الطيبة التى تشرح صدر المسلم ، وتبعث فيه الأمل وتمنحه الثقة ، وتجعل البشتر يعلو وجهه ، ويفتح أساريره ، وتبهج نفسه ، كما أن الكلمة الطيبة تغرس بذور المحبة فى القلوب ، وتساعد على الألفة ، وتقوية الروابط ، وما يكون بين المسلمين من وشائج وأمشاج . كما أنها تقتلع الشرك ، والبغضاء ، والشنان والكراهية من القلوب ، وتحل بدلاً منها المحبة ، والمودة ، والأخوة الصادقة وبذلك يصبح نسيج المجتمع المسلم نسيجاً قوياً متلاحماً ، ومتآخياً ، ومترايباً ومتحداً . يقول – صلى الله عليه وسلم – : " الكلمة الطيبة صدقة " . ويقول الشاعر العربى :

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

فإن لم يكن عندك مال ، ولا جاه ، تتصدق به على الناس فلتكن الكلمة الطيبة التى تسعد الناس ، فإن المال الذى تملكه وتتصدق منه ، أو تقديم الخدمات للناس حيث إن هذه الخدمات تعد تقريبا لكرب المكروبين ، ونصرة للمظلومين ، وعونا للمعوزين ، والمحتاجين .

وفى هذه المعانى يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٨٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وِبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ [سورة البقرة: ٨٢: ٨٣]. والمعنى :

وقولوا للناس قولاً حسناً ، وذلك يكون بخفض الجناح ، ولين الجانب ، مع الكلام الطيب ، ويقول الخازن : { وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا } فيه وجهان :

أحدهما : أنه خطاب للحاضرين من اليهود فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم فلهذا عدل من الغيبة إلى الحضور ، والمعنى قولوا : حقاً وصدقاً فى شأن محمد

صلى الله عليه وسلم فمن سألكم عنه فأصدقوه وبينوا صفته ولا تكتموها قاله ابن عباس .

الوجه الثاني إن المخاطبين به هم الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام ، وأخذ عليهم الميثاق وإنما عدل من الغيبة إلى الحضور على طريق الالتفات كقوله تعالى : { حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بِحِمِّهِ } وقيل : فيه حذف تقديره وقلنا لهم : في الميثاق وقولوا : للناس حسناً ومعناه مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر وقيل هو اللين في القول والعشرة وحسن الخلق لقوله تعالى : { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ } ولما أمرهم الله تعالى بهذه التكاليف الثمانية لتكون لهم المنزلة عنده بما التزموا به أخبر عنهم أنهم ما وفوا بذلك بقوله تعالى : { ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ } أي أعرضتم عن العهد { إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ } يعني من الذين آمنوا كعبد الله بن سلام وأصحابه فإنهم وفوا بالعهد { وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ } أي كإعراض آبائكم .

ويقول ابن كثير في معنى هذه الآية : "وقوله تعالى : { وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا } أي : كلموهم طيباً ، ولينوا لهم جانباً ، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف، كما قال الحسن البصري قوله : { وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا } فالحسن من القول : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحلم ، ويعفو، ويصفح، ويقول للناس حسناً كما قال الله، وهو كل خلق حسن رضيه الله. وقال الإمام أحمد: عن أبي ذر، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا تحقرن من المعروف شيئاً، وإن لم تجد فالق أخاك بوجه منطلق " .

ويقول الماوردي : " { وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا } فمن قرأ حسناً ، يعني قولاً صدقاً في بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وبالرفع ، أي قولوا لجميع الناس حسناً ، يعني خالقوا الناس بخلق حسن . وقال – صلى الله عليه وسلم – : " عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتَّبِعِ السَّبِيلَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ » .

1 اخبره مسلم في صحيحه و الترمذى و صححه

2 رواه الترمذى

وفى المعنى ذاته يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿وَلِيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ

تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾

[سورة النساء: ٩]. والمراد بالقول السديد هو القول الصادق . وأيضا قوله تعالى :

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾

فَأْتَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾

[سورة المائدة: ٨٤: ٨٥]

وقوله - سبحانه وتعالى - : ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ

أَجْتَذَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٦١﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۗ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾

[سورة إبراهيم: ٢٦: ٢٧]. ويقول الله - سبحانه وتعالى - فى نفس المعنى : ﴿وَقُلْ

لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ۗ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا

مُيْتَنًا ﴿٥٣﴾ [سورة الإسراء: ٥٣]. والمعنى : وقل لعبادى يقولوا فى مخاطباتهم .

ومحاوراتهم مع خصومهم من المشركين وغيرهم " الكلام الأحسن للأقناع ، مع البعد

عن الشتم ، والسب والأذى . وتظهر هذه الآية قوله - سبحانه وتعالى - : أَدْعُ إِلَى

سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ . وقوله - سبحانه وتعالى - : " وَلَا تُجَادِلُوا

أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ " . وروى أن الآية نزلت فى سيدنا " عمر بن

الخطاب " جبار الجاهلية وعملاق الإسلام - رضى الله عنه - . وذلك أن رجلا

شتمه ، فسبه سيدنا " عمر بن الخطاب " - رضى الله عنه - وهم بقتله فكادت

تنيرفتنه فأنزل الله قوله - سبحانه وتعالى - : " وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا " . ثم نرى

القرآن يعلل لذلك بقوله : " إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ " . فأمروهم بالقول الحسن لأن

الشیطان يثير بينهم الفتن والفتن والفتن والفتن . يعنى : بين المسلمين والمشركين ويهيج الشر

بينهم ، فيقع الشر ، والمخاصمة . ولذلك أمرهم بالقول الطيب والكلام الحسن .
 "وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا" .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرٍ يُسْرًا ﴾ [سورة الكهف: ٨٨] . والمعنى : يقول القرطبي :
 "وأما من آمن" . أي تاب من الكفر: " وَعَمِلَ صَالِحًا " قال أحمد بن يحيى: أن في موضع نصب في " إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا " قال : ولورفعت كان صوابا بمعنى فيما هو، كما قال: فسيرا فيما حاجة تقضيانها وإما مقيل صالح وصديق فله جزاء الحسنى . " فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ " بالرفع على الابتداء أوبالاستقرار . والحسنى " في موضع خفض بالإضافة وب حذف التنوين للإضافة ، أي له جزاء الحسنى عند الله تعالى في الآخرة وهي الجنة، فأضاف الجزاء إلى الجنة، كقوله: " حق اليقين " .
 " ولدان الآخرة " قاله الفراء . ويحتمل أن يريد ب " الحسنى " الأعمال الصالحة .

وفى المعنى ذاته يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُكَلِّفُ فِيهَا مِنَ السَّكَاوِرِ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [سورة الحج: ٢٣: ٢٤] . والمعنى : وأرشدوا إلى القول وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ [سورة الحج: ٢٣: ٢٤] . والمعنى : وأرشدوا إلى القول الطيب ، وهو قولهم حين دخول الجنة : الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء " . كما أنهم أرشدوا إلى الطريق الحميد الذى يجعل أقوالهم ، وأفعالهم مرضية عند ربهم محمودة لدى معاشرهم ، وإخوانهم . لما فيها يجمل فى المعاشرة والاجتماع ومثلها فى المعنى قوله - سبحانه وتعالى - :
 ﴿ أَذْهَبًا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لَنَا لَعَلَّهُ يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ [سورة طه: ٤٣: ٤٤] يقول صاحب اللطائف فى معنى هذه الآية : " إنما أمرهما بالملاينة

فلو أن هؤلاء المؤمنین صدقوا فى إيمانهم ، وإتباعهم الرسول ، وأخلصوا النية فى القتال لكان خيرا لهم عند ربهم ، إذ ينالون به الثواب ، والزلفى عنده ، ويعطيهم ما تقر به أعينهم ، ويدخلهم جنات النعيم .

هذه هى الأخلاق القرآنية الكريمة التى أرشدنا الله إليها فى كتابه العزيز وهو الكلم الطيب ، والقول الحسن . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة فُصِّلَتْ: ٣٣]. ويقول الله تعالى فى آية أخرى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ ﴾ [سورة فاطر: ١٠].

فلو أن المسلمین تمسكوا بهذه الأخلاق التى أرشدنا إليها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لحكموا وسادوا ، وبخلوا وفازوا بسعادة الدارين . (١)

1 صفوة التفسير ج ٢ ، ص ٧٤

◆ ذاته ج ٢ ، ص ٣٦٩

◆ تفسير الخازن ج ١ ، ص ٤٢

◆ تفسير ابن كثير ج ١ ، ص ١٢٠ بتصريف

◆ كتاب السبع فى القراءات إبن مجاهد ، تحقيق الدكتور / شوقى ضيف . ط . دار المعارف . القاهرة ص ١٦٣ .

◆ تفسير الماوردى ج ١ ، ص ١٥٤ بتصريف

◆ تفسير القرطبي ج ٦ ، ص ٤٠٩١ و ما بعدها

◆ لطائف الاشارات للتشيرى ج ٢ ، ص ٤٥٨

◆ تفسير المراغى ج ٥ ، ص ٥٩ بتصريف

◆ ذاته ج ٨ ، ص ١٠٦

◆ ذاته ج ٨ ، ص ١٣٠

◆ دلتته ج ٩ ، ص ٦٦

التشاور

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة " التشاور " وهو خلق إسلامى ، وتوجيه ربانى ، فما خاب من استشار ، ولا ندم من استخار ، وهذه هى الديمقراطية الحقبة والحرية الصحيحة ، والتي تتجلى فى أخذ آراء الناس حتى يستطيعوا الوصول إلى النتائج الصحيحة التى تأخذ بأيديهم إلى طرائق النجاه ، فإن رأى الواحد هو الاستبداد بعينه ، والدكتاتورية التى لا تمكن فرداً من أفراد المسلمين إعلان رأيه فى أمن وأمان ، وبذلك يشقى المجتمع . ففى ظل رأى الواحد وعدم التشاور شقاء الأمة ، وشقاء أفرادها ، وسبب كبير فى التأخر والتخلف . يقول الشاعر :

رأى الجماعة لا تشقى البلاد به رغم الخلاف ورأى الفرد يشقىها
ويقول أمير الشعراء أحمد شوقى :

والدين يسر والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاء

وفى هذه المعانى السامية يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنْ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (١٥٩)

[سورة آل عمران: ١٥٩]. والمعنى فتجاوز عما نالك من أذاهم يا محمد ، وأطلب لهم من الله المغفرة ، وشاورهم فى جميع أمورك ، ليقتدي بك الناس .

يقول الحسن : " ما شاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمورهم " . وكان - عليه الصلاة والسلام - كثير المشاورة لأصحابه . ويقول الله - سبحانه وتعالى - فى المعنى ذاته ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ (سورة يوسف: ٥٤). والمعنى : حين تحقق الملك من براءة يوسف - عليه السلام - ونزاهة عرضه مما نسب إليه ، قال : ائتنونى به أجعله من خاصتى ، أهل مشورتى ، فلما خاطبه الملك وعرفه ، ورأى فضله وبراعته وعلم ما هو من خلق وخلق ، أى : من شكل وصورة جميلة . ومع هذا الجمال خلق كريم وكمال انسانى . حينذاك قال له الملك : " إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ " . أى نومكانة وامانة . حينذاك

إليهم ، فلا يقع منهم إلا ما يوافقه ويقتضيه من الأمور الصالحة وترك التسرع فى الاختيار ، وكَرَّةَ إليهم هذه الأمور الثلاثة : " الكفر ، والفسوق ، والعصيان " .
والحقيقة : إن الإيمان الكامل إقرار باللسان ، وتصديق بالجنان ، وعمل بالأركان ، فكراهة الكفر فى مقابلة محبة الإيمان . وتزيينه فى القلوب هو التصديق بالجنان . أي العقل ، والفسوق وهو الكذب فى مقابلة الإقرار باللسان ، والعصيان فى مقابلة العمل بالأركان^٤ . **أُولَئِكَ هُمُ الرّٰشِدُونَ** . يعنى : هؤلاء الذين صفاتهم هذه هم السالكون طريق السعادة ولم يميلوا عن الاستقامة .
هذه هى الأخلاق فى القرآن الكريم وهى التشاور فى الأمر ، وهذه هى الديمقراطية الصحيحة التى أقرها الإسلام ، وبينها رسولنا – صلى الله عليه وسلم – فى سنته المطهرة – عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم – . (١)

1 تفسير الطبرى ج ٧ ، ص ٣٣٤ .
□ تفسير ابن كثير ج ٢ ، ص ٤٨٢ . و ج ٤ ، ص ١١٨ .
□ صفوة التفاسير ج ٢ ، ص ٤٠٨ .
□ لطائف الاشارات ج ٣ ، ص ٣٦ .
□ تفسير البيضاوى ج ٢ ، ص ١٧٥ .
□ تفسير المراعى ج ٩ ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .
□ فى ظلال القرآن الكريم ج ٦ ، ص ٣٣٤٢ .

البعد عن رفقاء السوء

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة التي يوجهنا إليها الله - سبحانه وتعالى - في كتابه الكريم . ورسولنا - صلى الله عليه وسلم - في سنته المطهرة " النأى عن رفقاء السوء " حتى لا نورط أنفسنا معهم في ارتكاب المناكر واقتراف الذنوب ، واجتراح السيئات ، فعن أَبِي مُوسَى عَنِ أَبِيهِ - رضى الله عنه - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - « مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوِّءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمَسْكِ ، وَكَبِيرِ الْحَدَّادِ ، لَا يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ الْمَسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ ، أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ ، وَكَبِيرِ الْحَدَّادِ يُحْرِقُ بِدَنَّاكَ أَوْ ثَوْبَكَ أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً . »

أجل : إن صديق السوء يشبهه النبي - صلى الله عليه وسلم - بنافخ الكير الذى إن جاورته أو عاشرتة أوخالطته إما أن يحرق ثيابك ، واما أن تشتم منه رائحة كريهة ، وكذلك صديق السوء ، أما أن يوقعك فى الشر وارتكاب المآثم ، وأما أن يشوه سمعتك ويلطخ سيرتك ، أما الصديق المؤمن التقى الصالح فشبهه النبي - صلى الله عليه وسلم - بحامل المسك / فإما أن تشتري منه مسكاً ، إما أن يعطيك مسكاً هدية من عنده ، إما شممت منه رائحة طيبة . فكذلك الصديق الصالح ، إما أن يسمعك خيراً بإسداء نصيحة أو تذكير بالله ، أو فعل خير وطاعة ، إما أن تطلب منه أنت النصيحة فينصحك بصدق وإخلاص ، وإما أن تسمع منه خيراً إن خالطته أو عاشرتة . هذا هو الإسلام بأخلاقه الرفيعة وقيمه العالية ومبادئه السامية وإرشاداته القوية .

يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الفرقان: ٢٩] . والمعنى أن الملك فى ذلك اليوم لله الواحد القهار ، الذى تخضع له الملوك ، وتعنوله الوجوه ، وتذل له الجبابرة ، لا مالك يومئذ سواه ، وذلك مثل قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ

تُجَزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿ [سورة غافر: ١٦: ١٧]. وقوله - سبحانه وتعالى - : " وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا " .
يعنى : وكان ذلك اليوم صعباً شديداً على الكفار .

يقول " أبى حيان " : " ودل قوله " عَلَى الْكَافِرِينَ " على تيسيره على المؤمنين ، ففى الحديث : " إنه يهون حتى يكون على المؤمن أخف عليه من صلاه مكتوبة صلاها فى الدنيا " . واذكر يوم يندم ويتحسر الظالم على نفسه لما فَرَطَ فى جنب الله وعض اليدين كناية عن الندم والحسرة . والمراد بالظالم هنا : " عقبة بن معيط " وهى تعم كل ظالم فى كل عصر وزمان ومكان .

يقول " ابن كثير " - رحمه الله تعالى - : يخبر تعالى عن ندم الظالم الذى فارق طريق الرسول وما جاء به من عند الله من الحق المبين ، الذى لا مزية فيه ، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول ، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم ، وعض على يديه حسرةً وأسفاً . وسواء كان سبب نزولها فى " عقبة بن أبى مُعَيْط " أو غيره من الأشقياء ، فإنها عامة فى كل ظالم ،

كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ [سورة الأحزاب: ٦٦: ٦٨] فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ، وَيَعْصُ عَلَى يَدَيْهِ قَائِلًا ﴿ يَتَوَلَّى لَيْتَنِي لَمْ أَخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة الفرقان: ٢٨] يعنى : مَنْ صرفه عن الهدى ، وعدل به إلى طريق الضلالة من دعاة الضلالة ، وسواء فى ذلك " أمية بن خلف ، أو أخوه أبى بن خلف " ، أو غيرهما . { لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ } وهو القرآن { بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي } أى : بعد بلوغه إليّ ، قال الله تعالى : { وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا } أى : يخذله عن الحق ، ويصرفه عنه ، ويستعمله فى الباطل ، ويدعوه إليه .

ثم يقول الظالم : يا ليتنى أتبعته الرسول فاتخذت معه الطريق إلى الهدى ينجينى من العذاب ، ويا هلاكي وحسرتى ، يا ليتنى لم أصاحب فلاناً وأجعله صديقاً لي . ولفظ فلان كناية عن الشخص الذى أضله وهو " أبى بن خلف " .

ويقول " القرطبي " : وكفى عنه ، ولم يصرح باسمه ليتبادل جميع من فعل مثله . حيث انه أضلني عن الهدى والإيمان بعد أن اهدتيت وآمنت ، ثم يقول – سبحانه وتعالى – " وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا " . يعنى : يضلّه وينويه ، ثم يتبرأ منه وقت البلاء فلا ينقذه ولا ينصره . لذا أوجب الإسلام على المسلم أن يتخير الصديق ، والجليس الصالح .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى – فى المعنى نفسه : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلًى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامٍ نَّ أَنْ شَكَرَ لِي وَلَوْلَا دِيكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطَعَهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة لقمان: ١٤: ١٥] . والمعنى : وأمرنا ببرهما وطاعتهما ، والقيام بحقوقهما ، فأخلاق القرآن الكريم تلزم المسلم أن يقوم ببر والديه ، والإحسان إليهما ، وخفض الجناح لهما ، لكنه لا يطيعهما فى المعاصي وإن الحق عليك والدك فى الطلب ، وشدا النكير عليك ، بأن تشرك بى فى عبادة غيرى مما لا تعلم أنه شريك لى ، فلا تطعهما فيما أمرك به ، وإن أدى الأمر إلى استخدام السيف والسلاح فجاهدهما به ، ويروى أن هذه الآية نزلت فى سيدنا " سعد بن ابى وقاص " – رضى الله عنه – قال: لما أسلمت، حلفت أُمى لا تأكل طعاماً ولا تشرب شراباً، قال: فناشدتها أوّل يوم، فأبت وصبرت، فلما كان اليوم الثانى ناشدتها، فأبت، فلما كان اليوم الثالث ناشدتها فأبت، فقلت: والله، لوكانت لك مئة نفس لخرجت قبل أن أدع دينى هذا، فلما رأته ذلك ، وعرفت أنى لست فاعلاً أكلت.

وفى الآية إشارة إلى أن المسلم يجب عليه أن ينأى بنفسه عن أصدقاء السوء ، وأنه لا صداقة فى معصية الله ، كما لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . وخير الأصحاب من أعان على طاعة .

وفى المعنى ذاته يقول الله – عزوجل – : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطْعِ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [سورة الأحزاب: ٤٧: ٤٨] . والمعنى : ولا تطع قول الكافر ،

ومنافق في أمر الدعوة ، وألن الجانب في التبليغ ، وترفق في الإنذار ، واصفح عن أذاهم ، واصبر على ما ينالك منهم ، وفوض أمورك إلى الله ، وثق به ، فإنه كافيك جميع من دونك ، حتى يأتيك أمره وقضاؤه. وهو حسبك في جميع أمورك ، وداعيك .

ويقول الله - عز وجل - أيضا ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَتَىكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ إِذْ دَا مَنَا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْمًا إِذْ نَأْمِدُتُونُ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَأَلَّهْ إِنَّ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [سورة الصافات: ٥١: ٥٧]. والمعنى : قال قائل من أهل الجنة :

إني كان لي في الدنيا صديق وجليس ينكر البعث ، ويقول لي : أتصدق بالبعث والجزاء ؟ وهل إذا متنا وأصبحنا ذرات من التراب ، وعظاماً نخرةً أئنا لمحاسبون ومجزيون بأعمالنا ، ويقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد . وقال ذلك المؤمن لإخوانه في الجنة : هل أنتم مطلعون إلى النار لننظر كيف حال ذلك القرين ؟ . فنظر فرآه في سواء الحجيم . أي : فنظر فأبصر صاحبه الكافر في وسط الحجيم يتلظى سعيرها ، فخاطبه المؤمن شامتاً وقال له : " والله لقد قاربت أن تهلكني بإغوائك لي وتزيينك لي القبيح حسناً ، ولولا فضل الله عليّ بتبئيتي على الإيمان لكنت معك في النار محضراً ، ومعذباً في الحجيم ، قال تعالى : ﴿ قَالَ تَأَلَّهْ إِنَّ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

ويقول الله - سبحانه وتعالى - في هذا المعنى أيضا : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّرٍ قَدَّ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴾ [سورة فصلت: ٢٥]. يقول الماوردي : "قوله عز وجل :

{ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ } فيه قولان :

أحدهما : هيأنا لهم شياطين ، قاله النقاش .

الثاني : خلينا بينهم وبين الشياطين ، قاله ابن عيسى لقوله { فَزَيَّنُوا لَهُمْ

مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } فيه أربعة تأويلات :

أحدها ما بين أيديهم من أمر الدنيا ، وما خلفهم من أمر الآخرة ، قاله السدي ومجاهد .

الثاني : ما بين أيديهم من أمر الآخرة فقالوا لا جنة ولا نار ولا بعث ولا حساب ، وما خلفهم من أمر الدنيا فزينوا لهم اللذات ، قاله الكلبي .

الثالث : ما بين أيديهم هو فعل الفساد في زمانهم ، وما خلفهم هو ما كان قبلهم ، حكاه ابن عيسى .

الرابع : ما بين أيديهم ما فعلوه ، وما خلفهم ما عزموا أن يفعلوه .
 ويحتمل خامساً : ما بين أيديهم من مستقبل الطاعات أن لا يفعلوها ، وما خلفهم من سالف المعاصي أن لا يتوبوا منها .

ويقول الله تعالى أيضا : ﴿ ذَلِكْ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ مَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ (٢٩) [سورة فصلت: ٢٨: ٢٩]. والمعنى : وقال الذين كفروا وهم في النار : يا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس ، ويعنون بذلك " إبليس " ، و" قابيل بن آدم " الذي قتل أخاه " هابيل " ، لأنهما سنا المعصية . نجعلهما تحت أقدامنا أي في النار . ليكونا في الدرك الأسفل منها ، وقال " ابن عباس " - رضي الله عنهما - : " ليكونا أشد عذاباً منا " .

ويقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (٦٧) يَنْعَبَادُوا لَّا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ (٦٩) [سورة الزخرف: ٦٧: ٦٩]. والمعنى : إن الأصدقاء والأحباب يوم القيامة يصبحون أعداءً إلا من كانت صداقته ومحبته لله .

يقول " ابن كثير " - رحمه الله تعالى - : " كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله ، عز وجل ، فإنه دائم بدوامه . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين . تشريفاً وتطييباً لقلوبهم فيقول : " يَنْعَبَادُوا لَّا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ " . في هذا اليوم العصيب ، ولا انتم تحزنون على ما فاتكم من الدنيا ، فيقول ابن كثير في

معنى هذه الآية : كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوةً إلا ما كان لله، - عزوجل - فإنه دائم بدوامه.

وقال الخازن : " الأخلاء على الكفر والمعصية في الدنيا سيكونون يوم القيامة أعداء ، فالخلة إذا كانت كذلك صارت عداوة يوم القيامة ، إلا الموحدين المتحابين في الله - عزوجل - المجتمعين على طاعته . ويقول الله - عزوجل - أيضاً : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عِتِيدٍ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَٰ فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عِنْدِي ﴿٢٤﴾ مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ وَلَا لَكِن كَان فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْضَمُوا لَدَىٰ وَقَدْ قَدَمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة ق: ٢٣: ٢٨]. والمعنى : قيل أحدها : أنه الملك الشهيد عليه .

الثاني : أنه قرينه الذي قبيض له من الشياطين .

الثالث : أنه قرينه من الإنس .

وفي قوله : { هَذَا مَا لَدَىٰ عِتِيدٍ } وجهان :

أحدهما : هذا الذي وكلت به أحضرته .

الثاني : هذا الذي كنت أحبه ويحبيني قد حضر .

وقوله عزوجل : { أَلْقِيَٰ فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عِنْدِي } في ألقيا ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن المأمور بألقيا كل كافر في النار ملكان .

الثاني : يجوز أن يكون واحد ويؤمر بلفظ الاثنین كقول الشاعر :

فإن تزجراني يابن عفان أنزجر وإن تدعاني أحرم عرضاً ممنوعاً

الثالث : أنه خارج مخرج تثنية القول على معنى قولك ألق ألق ، قف

قف، تأكيداً للأمر. والكفار [سورة بفتح الكاف] أشد مبالغةً من الكافر. ربنا ما

أضلته ، ولكنه ضل بإختياره ، وأثر العمى على الهدى من غير إكراه أو إجبار .

ويحتمل وجهين :

أحدهما : أنه الكافر الذي كفر بالله ولم يطعه ، وكفر بنعمه ولم يشكره .

الثاني : أنه الذي كفر بنفسه وكفر غيره بإغوائه .

وفى الآية محذوف دل عليه السياق ، كأن الكافر قال : يا رب ، إن شيطانى هو الذى أطغانى فيقول قرينه : " ربنا ما أطغيتة " بل كان هو نفسه ضالاً معانداً للحق فأعنته عليه . فيقول الله - عزوجل - للكافرين وقرناءهم من الشياطين : لا تتخاصموا هنا ، فما ينفع الخصام ولا الجدل ، وقد سبق أن أنذرتكم على السنة الرسل بعذابى ، وحذرتكم شديد عقابى ، فلم تنفعكم الآيات والنذر ، وصدق الله - سبحانه وتعالى - إذ يقول :

﴿ مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [سورة ق: ٢٩].

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ
عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ
اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة المجادلة: ٢٢]. والمعنى : لا تجد قوماً
يجمعون بين الإيمان بالله واليوم الآخر ، وموادة أعداء الله ورسوله ، لأن إيمان
المؤمنين يفسد بموادة الكافرين ؛ إذ من كان مؤمناً حقاً لا يوالى كافراً .

والمراد من موالاته مناصحته وإرادة الخير له فى الدين والدنيا ، أما
المخالطة والمعاشرة فليست بمحظورة ، ولقد أصاب المسلمين اليوم من ذلك بلاء
شديد ، فإننا نرى الأمم الإسلامية أصبحت فى أخريات الأمم ، وأبناؤها فى شمال
إفريقية ، وفى مصر وغيرها يوالون الأعداء وينصرونهم على أبناء جنسهم ، ولو كان
فى هذا ذل لهم ودينهم وأمتهم ، ولن يزول هذا الا بالاستشعار بالعزة والكرامة
القومية والدفاع عن حوزة الدين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ثم بالغ فى الزجر
وأبان أنه لا ينبغي لمؤمن أن يفعل ذلك ولومع الأقارب كالأبء الذين يجب طاعتهم
ومصاحبتهم فى الدنيا بالمعروف ، أو الأبناء الذى هم فلذات الأكباد ، أو الإخوان
الذين الناصرون لهم ، أو العشيرة الذين يعتمدون عليهم بعد الإخوان . ومجمل القول :
لا يجتمع إيمان مع موادة أعداء الله ، لأن من أحب أحداً أمتنع من محبة عدوه ،

فإذا حصل في القلب مودة أعداء الله لم يحصل فيه الإيمان الصحيح ، وكان صاحبه منافقاً .

وأخرج الطبراني والحاكم والترمذي مرفوعاً : " يبعث الله يوم القيامة عبداً لا ذنب له فيقول له : بأي الأمرين أحب إليك أن أجزيك بعملك أم بنعمتي عليك ؟ قال : رب أنت تعلم أي لم أعصك قال : خذوا عبيدي بنعمة من نعمي فما يبقى له حسنة إلا استغرقتها تلك النعمة فيقول : رب بنعمتك ورحمتك فيقول : بنعمتي وبرحمتي ويؤتى بعبد محسن في نفسه لا يرى أن له سيئة فيقال له : هل كنت توالي أوليائي ؟ قال : يا رب كنت من الناس سَلِمًا قال : هل كنت تعادي أعدائي قال : يا رب لم أكن أحب أن يكون بيني وبين أحد شيء فيقول الله تبارك وتعالى : وعزتي لا ينال رحمتي من لم يوال أوليائي ويعاد أعدائي . " وأخرج الديلمي من طريق الحسن عن معاذ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم لا تجعل لفاجر عندي يداً ولا نعمة فيوذه قلبي فيأني وجدت فيما أحيت إلي لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله " .

وقيل : أن الآيات نزلت في سيدنا أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - .
وقيل : نزلت في أبي عبيدة الجراح " . وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال :
" جعل أبو عبيدة بن الجراح يبعث له الآلهة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله، فأنزل الله فيه هذه الآية: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولِيكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة المجادلة: ٢٢] .

أولئك الذين سلفت أوصافهم أثبت الله في قلوبهم الإيمان ، والإيمان نعمة عظيمة لا تحصل لمن يواد من حاد الله ورسوله ، وأيدهم بروح منه . يعنى : قواهم وثبتهم بطمأنينة القلب ، والثبات على الحق ، فلا يبالون بموادة أعداء الله ، ولا يآبهون لهم . " وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ

هذه هى الأخلاق فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والنأى عن المعاصي ، والبعد عن الشهوات التى تكون سبباً فى انحراف المسلم وانغماسه فى الملذات ، وجريه وراء الشهوات ، فالواجب عليه أن يجعل ربه - عزوجل - نصب عينيه ، وأن يراقبه فى السر والعلن ، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه . (١)

1- البحر المحيط : لإبن حيان ج ٦ ، ص ٤٩٥ .

□ مختصر ابن كثير ج ٢ ، ص ٦٣٠ .

□ تفسير القرطبي ج ١٢ ، ص ٢٦ .

□ تفسير المراغى ج ٧ ، ص ٨٢ و ما بعدها .

□ ذاته ج ٨ ، ص ٢٠ .

□ ذاته ج ١٠ ، ٢٧ .

□ ديوان احمد شوقى .

□ صفوة التفاسير ج ٣ ، ص ٣٤ .

□ ذاته ص ٢٤٦ .

□ تفسير المازردى ج ٥ ، ص ١٧٧ و ما بعدها ، ص ٣٥٠ و ما بعدها .

□ لطائف الاشارات للقشيري ج ٣ ، ص ٥٥٥ ، ص ٦٤٨ .

□ تفسير الطبرى ج ٢٩ ، ص ٩٣ .

□ التفسير الكبير ج ٣ ، ص ١٩٣ .

عدم الاختلاط والحجاب للنساء

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة التى توجه المرأة المسلمة إلى الفضيلة ومحاربة الرذيلة وذلك بعدم الخضوع فى القول والتخنت والتكسر والميوعة فى الكلام ، وفى ذلك حفاظ على كرامتها ، وصون لعفافها ، وسياج متين لحمايتها ، ونأى بنفسها عن السهام المريشة التى توجه إليها من ذئاب البشر ، كما أن الحشمة والوقار والقرار فى البيوت يحميها كذلك من نظرة جازرة ولفظة ممقوتة غادرة . فهذا الخلق القرآنى الكريم يحمى المرأة ويجعلها تعيش فى أمان حقيقيين ، وأيضا تحافظ بذلك الخلق على كرامتها وكرامة أسرته .

يقول الشاعر :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وفى هذه المعانى السامية يحدثنا القرآن الكريم فيقول – سبحانه وتعالى :

﴿ يٰٓنِسَآءَ النَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَآءِ ۚ إِن تَقِيْنَ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٣﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَءَاتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٣٢-٣٣].
والمعنى يا نساء النبي أنتن تختلفن عن سائر النساء ، من جهة أنكن أفضل وأشرف من غيركن ، لكونكن زوجات خاتم الرسل ، وأفضل الخلق سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم - . فليست الواحدة منكن كالواحدة من آحاد النساء . فإن اتقيتن الله فأنتن بأعلى المراتب .

يقول القرطبي : " بين تعالى أن الفضيلة إنما تتم لهن بشرط التقوى ، لما منحهن الله من صحبة الرسول وعظيم المحل منه، ونزول القرآن فى حقهن. قوله تعالى: (فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ) فى موضع جزم بالنهي إلا أنه مبني كما بني الماضى، هذا مذهب سيبويه، أى لا تلتن القول . أمرهن الله أن يكون قولهن جزلاً وكلامهن فصلاً، ولا يكون على وجه يظهر فى القلب علاقة بما يظهر عليه من اللين، كما كانت الحال

عليه في نساء العرب من مكالمة الرجال بترخيم الصوت ولينه، مثل كلام المربيات والمومسات.

ويقول ابن عباس - رضي الله عنهما - : يريد في هذه الآية : " ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات أنتن أكرم علي وثوابكن أعظم إن اتقيتن فشرط عليهن التقوى بياناً أن فضيلتهن إنما تكون بالتقوى لا بنفس اتصالهن برسول الله صلى الله عليه وسلم . فلا تخضعن بالقول أي لا تلتن بالكلام فيطمع الذي في قلبه مرض أي فجور والمعنى لا تقلن قولاً يجد به منافق أو فاجر سبيلاً إلى موافقتكن له والمرأة مندوبة إذا خاطبت الأجنبي إلى الغلظة في المقالة لأن ذلك أبعد من الطمع في الريبة ، وحب لمحادثة النساء ، وقلن قولاً حسناً عفيفاً لا ريبه فيه ، ولا لين ولا تكسر عند مخاطبتكن للرجال .

ونحن نقول : " إذا كان القرآن الكريم يمنع المرأة من أن تلتين في القول وكلامها مع الرجال الأجنبي ، لئلا يطمع بهما من بقلبه مرض ، وهم الفساق والفجار فكيف بمن تثير كوا من الشجن والشجون بالغناء الماجن ، وتثير الغرائز الكامنة بالغناء الماجن والرقص المتميع والملابس الخليعة ، وما في ذلك كله من ميوعة وانحلال في الحفلات الساهرة الداعرة ، والذي تنقله لنا الفضائيات والإذاعات المسموعة والمرئية ، ثم نسمع بعد ذلك من بعض أدياء العلم يحبذون هذا ويشجعونه بحجة أن صوت المرأة ليس بعورة ، اللهم إنا نعوذ بك ، ونحتمى بسنة رسولك - عليه الصلاة والسلام - من شر هذا الزمان الذي فسق فيه الشباب والشابات وطغت فيه النساء ، وأصبح المنكر معروفاً ، والمعروف منكراً .

ويقول ابن كثير - رحمه الله تعالى - : " أنها تخاطب الأجنبي بكلام ليس فيه ترخيم، أي: لا تخاطب المرأة الأجنبي كما تخاطب زوجها. والرّم بيوتكن ، ولا تخرجن لغير حاجة ، ولا تفعلن كما تفعل الغافلات ، المتسكعات في الطرقات لغير ضرورة ، ولا تظهرن زينتك ومحاسنكن للأجنبي مثلما كان نساء الجاهلية يفعلن ، حيث كانت تخرج المرأة إلى الأسواق مُظهِرةً لمحاسنها كاشفةً ما لا يليق كشفه من بدنها .

يقول قتادة - رضي الله عنه - : " كانت لهن مشية تكسر وتغنج ، فنهاهن عن ذلك ، قاله قتادة ، ومنه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « الْمَائِلَاتُ الْمُمِيلَاتُ : اللَّائِي يَسْتَمِلْنَ قُلُوبَ الرِّجَالِ إِلَيْهِنَّ » . ثم أمرهن بعد ذلك بالحفاظ على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . يقول ابن كثير : " نهاهن أولاً عن الشر ثم أمرهن بالخير، من إقامة الصلاة -وهي: عبادة الله، وحده لا شريك له - وإيتاء الزكاة، وهي: الإحسان إلى المخلوقين، { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ } في جميع الأوامر والنواهي ، لتنلن مترتبة المتقيات . وقوله: { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً } وهذا نص في دخول أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في أهل البيت ها هنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية . ثم يقول بعد ذلك : يا أهل بيت النبوة يجب ألا تتمنوا ما يتمناه الناس ، وذلك لطهارتكن وكرامتكن على الله ورسوله ، ولذلك طهركم من أوزار الذنوب والمعاصي تطهيرا بليغا .

وفي المعنى نفسه يقول الحق - سبحانه وتعالى - ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرٍ لِأَنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَعِجُ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِجُ مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَرْوَاحَهُنَّ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَ فِيءِ آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَآتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿سورة الأحزاب: ٥٣: ٥٥﴾

والمعنى : إن الآية توجيه للمؤمنين لهذا الأدب السامي العظيم ، والإضافة هنا للتشريف والتكريم . والمعنى : لا تدخلوا بيوت النبي في حال من الأحوال ، إلا في حال الإذن لكم من النبي - صلى الله عليه وسلم - مراعاةً لحقوق نسائه ، وحرصاً على عدم إيذائه والإتقال عليه ، وإذا أردتم حاجة من أزواجه الطاهرات فاطلبوه من وراء حجاب ، فسؤالكم إياهن ما تبغونه من وراء حجاب أذكى

لقلوبكم ، وقلوبهن ، وأطهر لكم ولهن ، وأنفى للريبة وسوء الظن ولا حرج ولا أثم على النساء فى ترك الحجاب أمام المحارم من الرجال .

يقول القرطبى : " قوله تعالى : ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءِ آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَآتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٥٥﴾ [سورة الأحزاب: ٥٥]. فيه ثلاث مسائل : الأولى - لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ونحن أيضا نكلمهن من وراء حجاب ؟ فنزلت هذه الآية.

الثانية - ذكر الله تعالى فى هذه الآية من يحل للمرأة البروز له، ولم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين. وقد يسمى العم أبا، قال الله تعالى: " قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ " وإسماعيل كان العم. والعم والخال ربما يصفان المرأة لولديهما، فإن المرأة تحل لابن العم وابن الخال فكره لهما الرؤية.

الثالثة - قوله تعالى: (وَآتَقِينَ اللَّهَ) لما ذكر الله تعالى الرخصة فى هذه الأصناف وانجزمت الإباحة ، عطف بأمرهن بالتقوى عطف جملة. وهذا فى غاية البلاغة والإيجاز، كأنه قال: اقتصرن على هذا واتقين الله فيه أن تتعدينه إلى غيره. وخص النساء بالذكر وعيّنهن فى هذا الأمر، لقلّة تحفظهن وكثرة استرسالهن.

والمراد " نِسَائِهِنَّ " نساء المؤمنين ، فالآية عامة وليست خاصة بنساء النبي فحسب . يقول ابن عباس - رضي الله عنهما - : " لأن نساء اليهود والنصارى يصفن لأزواجهن النساء المسلمات ، فلا يحل للمسلمة أم تبدى شيئاً منها ، لئلا تصفها لزوجها الكافر. واتقين يا معشر النساء الله ، وأخشينه فى الخلوة والعلانية، فإن الله - عزوجل - لا تخفى عليه خافيةً من أموركن ، فهو يعلم خطرات القلوب ، كما يعلم حركات الجوارح .

يقول الإمام الفخر الرازى : " وهذا فى غاية الحسن فى هذا الموضع ، لأن ما سبق إشارةً إلى جواز الخلوة بهم ، والتكشف لهم ، فحتمها بأن الله شاهد عند اختلاء بعضهم ببعض ، فالخلوة عنده مثل الجلوة ، فعليهم أن يتقوا الله " .

وفى ذات المعنى يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلًّا لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٥٩]. والمعنى : قل يا محمد - صلى الله عليك وسلم - لزوجاتك الطاهرات وهن أمهات المؤمنين ، وبناتك الفضليات الكريمات ، وسائر نساء المؤمنين ، قل لهم يلبسن الجلباب الواسع ، الذى يستر محاسنهن وزينتتهن ، ويدفع عنهن ألسنة السوء ، ويميزهن عن صفات نساء الجاهلية .

يقول الطبرى : " عن ابن عباس ، قوله (يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلًّا لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيهِنَّ) أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدن عيناً واحدة. وقال ابن كثير : " وقال محمد بن سيرين : سألت عبيدة السلماني عن قول الله تعالى : { يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيهِنَّ } ، فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى. تغطي ثغرة نحرها بجلبابها تدنيه عليها.

ذلك التستر أقرب بأن يعرفن بالعفة والتستر والصيانة ، فلا يطمع فيهن أهل السوء والفساد ، وقيل : " أئرن بأن يعرفن ، يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يأمر نساءه وبناته والنساء المؤمنات ، بأن يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيهِنَّ ، وَأَنْ يُغَطِينَ وَجُوهَهُنَّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِنَّ ، وَأَنْ يُغَطِينَ ثَغْرَةَ نُحُورِهِنَّ بِالْجَلَابِيْبِ الَّتِي يُدْنِيْنَهَا عَلَيْهِنَّ . وَالْغَايَةُ مِنْ ذَلِكَ التَّسْتُرُ ، وَأَنْ يُعْرَفْنَ بِأَنَّهُنَّ حَرَائِرُ فَلَا يُؤْذِيهِنَّ أَحَدٌ ، وَلَا يَتَعَرَّضُ لَهُنَّ فَاسِقٌ بَادِي وَلَا رِيْبِيَّةٌ ، وَرَبُّكُمْ غَفَّارٌ لِمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ صَدَرَ مِنَ الْإِخْلَالِ بِالتَّسْتُرِ ، كَثِيرُ الرَّحْمَةِ لِمَنْ أَمْتَلَّ أَمْرَهُ ، وَأَسْتَغْفَرَ رَبَّهُ عَمَّا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ قَدْ قَصَرَ فِي مُرَاقَبَتِهِ فِي أُمُورِ التَّسْتُرِ يُدْنِيْن عَلَيْهِنَّ - يُرْخِيْنَ وَيَسْدُلْنَ عَلَيْهِنَّ .

وفى المعنى ذاته يقول الله تعالى أيضا : ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِيَّ نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٣٢﴾﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَىٰ نَجْمِهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ

وَوَظَنَ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ، وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ [سورة ص: ٢٣: ٢٤].
 والمعنى : قال له داود - عليه السلام - : لقد ظلمك بهذا الطلب حين أراد انتزاع
 نعبتك منك ليكمل ما عنده إلى مائة ، وإن الكثيرين من الشركاء ليتعدى بعضهم
 على بعض ، إلا المؤمنون الذين يعملون الصالحات ، فإنهم لا يبغون ولا يظلمون ،
 وقليل ما هم ، وعلم داود - عليه السلام - وأيقن أننا اختبرناه بهذه الحادثة ، وتلك
 الحكمة ، فطلب المغفرة من الله ، وخرساجداً لله تعالى ورجع إليه بالتوبة والندم
 على ما فرط منه . ثم قال القرآن : **﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّعَابٍ ﴾** . يعني : له
 قربةً وكرامةً بعد المغفرة ، وحسن مرجع في الآخرة .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : **﴿ فَكَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَّتْ بِالْحَبَابِ ﴾** [سورة ص: ٣٢]. والمعنى : آثرت حب الخيل حتى
 شغلني عن ذكر الله . يقول المفسرون : عرضت عليه آلاف من الخيل تركها له أبوه
 ، فأجريت بين يديه عشياً متشاعلاً بحسنها ، وجريها ومحبتها عن ذكره خاص ،
 حتى غابت الشمس واختفت عن الأنظار .

هكذا يحرص القرآن الكريم على توجيه المسلمين والمسلمات للحفاظ على
 كرامتهن وصور بيوتهن ، وستر أجسادهن حتى تصبح المرأة المسلمة محتشمة
 كريمة عظيمة في نفسها ولدى الناس .^(١)

1 - صفوة التفاسير ج ٢ ، ص ٥٢٣ و ما بعدها .

- تفسير القرطبي ج ١٤ ، ص ١٧٧ ، ص ٢٢٤ ، ص ٢٣١ .
- زاد المسير ج ٦ ، ص ٣٧٨ .
- تفسير ابن كثير ج ٣ ، ص ٩٤ .
- مختصر تفسير ابن كثير ج ٣ ، ص ١١٤ ، ص ٢٠٢ .
- الكشاف للزمخشري ج ٣ ، ص ٤٢٥ ، ج ٤ ، ص ٧٠ .
- تفسير ابي السعود ج ٤ ، ص ٢٤٨
- تفسير البيضاوي ج ٢ ، ص ١٢٠
- حاشية الصاوي ج ٣ ، ص ٢٨٧
- التفسير الكبير ج ٢٥ ، ص ٢٢٧
- زاد المسير ج ٦ ، ص ٤٢٠
- تفسير الطبري
- صفوة التفاسير ج ٣ ، ص ٥٤ - ٥٩

الإفاءة إلى أمر الله

ومن الأخلاق القرآنية الإفاءة إلى أمر الله ، حيث إن الإسلام يوجهنا ويرشدنا إلى الإصلاح بين الناس ، ويرسم لنا الطريق إلى ذلك فإن طائفتان من المؤمنين أقتلتوا فيجب أن نصلح بينهما ، فإن بغت أحدهما على الأخرى وجب قتال الباغية حتى تفتى وترجع إلى أمر الله ، وتتحقق العدالة بين الطائفتين ، وفى ذلك الأمر دفع للظلم وإقرار الحق ، واستقرار المجتمع المسلم ليعيش فى أمن وأمان حقيقيين . أجل : إن القرآن بأخلاقه الشاملة ، ونظريته الشمولية ، ليسعد الناس جميعاً فى الدنيا بالاستقرار والطمأنينة ، وفى الآخرة بالفوز بجنة عرضها السموات والأرض أعدت للذين يعملون الصالحات .

وفى هذا المعنى يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِىءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [سورة الحجرات: ٩]. والمعنى : وإن حدث أن فئتين أو جماعتين من إخوانكم المؤمنين جنحوا إلى القتال فأصلحوا بينهما ، واسعوا جهدكم للإصلاح بينهما ، والجمع فى قوله تعالى : " أَقْتَلُوا " . باعتبار المعنى : حيث إن كل فرد مقاتل لأخيه المؤمن تتبعه جماعة ، فلذلك قال تعالى : " أَقْتَلُوا " . وأما " التثنية " فباعتبار اللفظ . فإن بغت أحدهما على الأخرى وتجاوزت حدها فى الظلم والطغيان ، ولم تقبل الصلح ، وصممت على البغي فقاتلوا الفئة الباغية حتى ترجع إلى حكم الله وشرعه ، وتقلع عن البغى والعدوان ، وتعمل بمقتضى أخوة الإسلام ، فإن رجعت وكفّت عن القتال فأصلحوا بينهما بالعدل ، دون حيف ، أو ظلم على إحدى الطائفتين والفئتين . وأعدلوا فى جميع أموركم ، إن الله يحب العادلين الذين لا يجورون فى أحكامهم .

يقول البيضاوى : " والآية نزلت فى قتال حدث بين قبيلتى الأوس والخزرج فى عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وكان فيه ضرب بالسيف والنعال، وهى تدل على أن الباغى مؤمن ، وأنه إذا كف عن الحرب ترك ، وأنه

الفداء والاستشهاد والإيثار

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة " الفداء ، والاستشهاد ، والإيثار " فالإسلام يطالب المسلمين بالتضحية في سبيل الله لإسترداد الكرامة المسلوبة ، وليعيد المسلمون أمجادهم ، وعزتهم ، وكرامتهم ، ولا يكون ذلك إلا بالتضحية والفداء في سبيل الله وعزة الإسلام والمسلمين ويحملهم أرواحهم على أكفهم طلباً للشهادة في سبيل نصرته الإسلام ، وإعزاز المسلمين ، كما أن الإسلام يحمي للملم الإيثار ، وهي التضحية بالذائد والشهوات ، وإيثار الدار الآخرة على الدنيا ، وإيثار الغير على النفس .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِثُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الحشر: ٩]. ويقول سبحانه وتعالى - : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [سورة الإنسان: ٨]. هكذا تكون التضحية والفداء والإيثار ، فهي أخلاق إسلامية .

وفي هذه المعاني السابقة يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٦].

ويقول تعالى أيضا : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [سورة الحديد: ٣٣] لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٢٣: ٢٤]. والمعنى : إن النبي - صلى الله عليه وسلم - أرفأ بهم ، وأعطف عليهم ، وأحق بهم من أنفسهم في كل شيء من أمور الدين والدنيا ، وحكمه أنفذ ، وطاعته أوجب . وزوجاتهم الطاهرات وهن أمهات المؤمنين في وجوب التعظيم والاحترام ، وتحريم نكاحهن .

ويقول أبى السعود فى تفسيره : " كلَّ نبيَّ أبٌ لأُمَّتهِ من حيثُ إنَّه أصلٌ فيما به الحياة الأبدية ولذلك صار المؤمنون إخوةً { وَأَزْوَاجَهُمْ أَهْمَهُمْ } أى منازلات منزلة الأمهات فى التَّحريم واستحقاق التَّعظيم ، وأما فيما عدا ذلك فهنَّ كالأجنبيات ، ولذلك قالت عائشةُ رضي الله عنها : لسنا أمهاتِ النساءِ { وأولوا الأرحامِ } أى ذُوو القرباتِ { بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ } فى التَّوارث وهونسخُ لما كان فى صدر الإسلام من التَّورات بالهجرة والمُوالاة فى الدِّين { بَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ } فى اللُّوح أوفيمًا أنزله وهو هذه الآية أواية المواريث أوفيمًا فرض الله تعالى { مِنْ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ } بيانٌ لأولى الأرحامِ أو صلةً لأولى أو أولوا الأرحام بحق القرباة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الدِّين ومن المهاجرين بحق الهجرة { إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيْهِ أَوْلِيَاءِكُمْ مَّعْرُوفًا } استثناءً من أعلم ما تُقدِّر الأولوية فيه من النفع . والمرادُ بفعل المعروفِ التَّوصيةُ أو منقطع { كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا } أى كان ما ذكر من الآيتين ثابتاً فى اللوح والقرآن .

ويقول الله تعالى فى معنى الفداء والإيثار والاستشهاد : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَخْنَقْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِّبَلِّغُوا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيِّدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِأَلْهَمِ ﴿٥﴾ [سورة محمد: ٤: ٥] . والمعنى : فإذا لقيتم الذين كفروا فى القتال فاحصدوهم حصداً بالسيوف حتى إذا غلبتموهم ، وقهرتم من لم تضربوا رقابهم وصاروا فى أيديكم أسرى فشدوهم فى الوثاق ، كى لا يقاتلوكم ، أو يهربوا منكم ثم أنتم بعد إنتهاء الحرب ، وانتهاء المعارك بالخيار فى أمرهم ، إن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم ، وتشاطرونهم عليه حتى لا يكون حرب مع المشركين ، ولا قتال . وذلك بزوال شوكتهم ، وهزيمتهم ، والنصرة عليهم .

ومثل هذا الآية قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كَلِمَةً لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ [سورة الأنفال: ٣٩] . يقول ابن عباس - رضي الله عنهما - : " لما كثر المسلمون ، واشتد سلطانهم أنزل الله عز وجل فى الأسارى { فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا

فِدَاءٌ } وهذا القول هو الصحيح ولأنه به عمل النبي - صلى الله عليه وسلم - والخلفاء بعده . وعن أبي هريرة قال : « بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له " ثمامة بن أثال " فربطوه في سارية من سواري المسجد فخرج إليه النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : ما عندك يا ثمامة ؟ .

فقال : عندي خيراً محمد إن تقتل تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاكر وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت .

فتركه النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان من الغد .
قال : ما عندك يا ثمامة ؟ .

قال : ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر وإن تقتل تقتل ذا دم وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت .

فتركه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى إذا كان من الغد قال : ما عندك يا ثمامة ؟ .

قال : عندي ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر وإن تقتل تقتل ذا دم وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أطلقوا ثمامة .

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد .

فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله والله ما كان على الأرض أبغض إليّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي . والله ما كان من دين أبغض من دينك فأصبح دينك أحب الدين كله إليّ والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليّ وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى فبشره النبي صلى الله عليه وسلم وأمره أن يعتمر فلما قدم مكة قال له قائل : أصبوت ؟ قال : لا ولكني أسلمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا والله لا يأتكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن عمران بن حصين قال : « أسر أصحاب رسول الله

صلى الله عليه وسلم رجلاً من بني عقيل فأوثقوه وكانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ففداه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجلين الذين أسرتهما ثقيف « أخرجته الشافعي في مسنده .

وأعلم أن للحرب فوائد ، وللسلم أخرى ، فالأمم في حال الطفولة عقولها أشبه بالشباب المراهق الذي لم يبلغ الحلم ، تراه يقاتل الصبيان ويشاجرهم ، ويوقع الأذى بهم ، وهم يزيدون في أذاه ، وينكلون به ، وهذه هي حال الأمم اليوم . ألا إن الحرب تقوى الأبدان ، وترقى الصناعات ، وتجعل الأمم تنمو ، كما أنها توظف الشعور ، وتفتح مغاليق الأمور ، وتيسر العسير . قال " أرسطو " للأسكندر : " إن الراحة مضرّة للأمم ، ومن ثم قيل : إذا أردت رقى أمة فأجعلها تخوض الحروب ، فإن ذلك يفتح لها باب السعادة ، والأمم النائمة على فراش الراحة الوثير مُعْرَضَةٌ للزوال . فإذا كملت أخلاق الأمم ومواهبها ، فإن نتائج السلم عندها ستكون كنتائج الحروب لدى من قبلها فكما يفرح الرجل في الأمم الحاضرة بغلبة الأعداء ، وشفاء الغليل ، وجمع الرجال ، والسلاح ، والكراع ، فسيكون فرح الأمم فيما بعد بمساعدة غيرها ، وانشراح صدورها بظهور أمم أخرى تكافح معها في ميدان الحياة ، ويكون كل فرد في الأمم المقبلة أشبه بالأب يكدح لمساعدة أبنائه ، وهذا الكدح والجد في العمل لفائدة الجميع يجد فيه العامل لذة وفرحاً أشد من فرح المنتصر في ميدان القتال .

وإن الأمم لا تزال في الطور الأول ، فهي تسعى لإسعاد نفسها بإهلاك سواها وسيأتى حين تسعى لإسعاد الجميع ، ويكون فرحها بهذا المسعى أشد من فرحها بهزيمة الأعداء ، ويكون الناس جميعاً بعضهم لبعض كالآباء والأبناء . وإلى حال الكمال أشار - سبحانه وتعالى - بقوله : **حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا** . وإلى حال النقص أشار - سبحانه وتعالى - بقوله : **" ذَلِكْ "** . يعنى : هذا الذى أمركم به عن قتل المشركين إن لقيتموهم فى حرب ، وشدوا وثاقهم فى أسرهم ، والمن والفاء حتى تضع الحرب أوزارها . هو الحق الذى أمركم به ربكم . وهو السنة التى جرى عليها الإصلاح حال عباده ، وهى التى ستبقى السنة الطبيعية بين الأمم ما دامت

فى طور طفولتها ، حتى يتم نضجها الفكرى والعقلى ، والخلقى فتضع الحرب أوزارها ، إذ لا يكون حاجة إليها ، لأن العالم كله يكون كأسرة واحدة ، سعادته بسعادة أفرادها ، وشقاؤه بشقائهم .

ثم يبين الله – سبحانه وتعالى – أن هذه السنة التى أرادها الله من حرب المشركين ولوشاء لانتقم منهم بلا حرب ولا قتال ، فقال تعالى : **وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنْصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ .** والمعنى : ولو يشاء الله لانتصر من هؤلاء المشركين بعقوبة عاجلة ، وكفاكم أمرهم ، ولكنه أراد أن يبلو بعضكم ببعض فيختبركم بها ، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين ويبلوهم بكم ، فيعاقب بأيديكم من شاء بمن أهلك بأيديكم حتى يثيب إلى الحق ، وفى الجهاد تقوية لأبدانكم ، ورقى لعقولكم ، ونفاذ لكلماتكم ، وجمع شملكم بما ترون من اتحاد عدوكم ، وبه ترقى الزراعة ، والتجارة والصناعة ، وجميع العلوم ، إذ لا يتم حرب ولا غلبة إلا بها ، وهكذا ترتقى حال الأعداء ، فيتسع العمران ، وتعم المدنية ، ويرقى النوع الانسانى ولا يعيش فى هذا الوسط الصالح إلا الصالح للبقاء ، والضعيف من الطرفين هالك ، وهذه سنة الله فى الكون .

ثم يذكر جزاء المجاهدين فى سبيل الله فيقول تعالى : **وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ .** يعنى : والذين جاهدوا أعداء الله فى دين الله ، وفى نصرته ما بعث الله به رسوله – صلى الله عليه وسلم – من الهدى ، فلن يجعل أعمالهم التى عملوها فى الدنيا ضائعة سدى كما اذهب أعمال الكافرين وجعلها عديمة الفائدة والجدوى . وروى أحمد أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « يُعْطَى الشَّهِيدُ سِتَّ خِصَالٍ عِنْدَ أَوَّلِ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ يُكْفَرُ عَنْهُ كُلُّ خَطِيئَةٍ وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُرَوِّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ وَيُؤَمِّنُ مِنَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَيَحْلَى حِلَّةَ الْإِيمَانِ » (١) .

ويروى أن هذه الآية نزلت فى يوم أُحُد حين نادى المشركون ، " اعل هبل " . وهو أكبر أصنامهم ، ونادى المسلمون " الله أعلى وأجل " . وقال المشركون : يوم بيوم

بدر والحرب سجال . فقال النبي : قولوا لا سواء قتلاتنا في الجنة أحياء عند ربهم يرزقون ، وقتلكم في النار يعذبون . فقال المشركون : إننا لنا العزة ، ولا عزة لكم . فقال المسلمون : " الله مولانا ولا مولى لكم .

ثم يفسر ما ذكر آنفا بقول – سبحانه وتعالى – : ﴿ سَيَدِيرُهُمْ وَيُصْلِحُ بِأَلْمَمِ ﴾ [سورة محمد: ٥]. والمعنى : سيوفقهم الله للعمل بما يرضيه ويحبه ، ويصونهم مما يورث الضلال ، ويصلح شأنهم في العقبى ، ويتقبل أعمالهم ، ويجعل لكل منهم مقراً في الجنة لا يضل في طلبه . لا جرم أن لكل امرئ في الحياة الدنيا عملاً يستوجب حالاً في الآخرة لا يتعدها ، كما يحصل كل من نال إجازة في علم ، أو صناعة على عمل يشاكل إجازته في قوانين الدولة . والناس في الآخرة أشبه ما يكون لأنواع السمك في البحر الملح ، وأنواع الطير في جوالسماء لكل منها جولا يتعدها . هكذا لكل من الصالحين درجة في الآخرة لا يتعدها ، بل يجد نفسه مقهوراً على البقاء فيها ، كما أن السمك منه ما هو قريب من سطح الماء ، ومنه من يوجد تحت سطح الماء بمئات الأمتار ، أو آلافها . وإلى ذلك يشير الله تعالى إلى ذلك بقوله **وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا** . وعن مجاهد – رضي الله عنه – قال : " يهدي أهل الجنة إلى بيوتهم ومسكنهم وحيث قسم الله تعالى لهم منها لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا لا يستدلون عليها أحداً وفي الحديث لأحدكم بمنزله في الجنة أعرف منه بمنزله في الدنيا وذلك بإلهام منه عز وجل وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل أنه قال : **بَلَّغْنَا** أن الملك الذي كان يحفظ عمل الشخص في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة ويتبعه الشخص حتى يأتي أقصى منزل هوله فيعرفه كل شيء أعطاه الله تعالى في الجنة فإذا انتهى إلى أقصى منزله في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه .

وفي المعنى ذاته يقول المولى – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [سورة الحديد: ١٩]. والمعنى : إن الذين وحدوه وآمنوا برسله هؤلاء هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم

ونورهم . فهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات هم الذين يجمعون كل المراتب ، وجميع الدرجات، ولهم في الآخرة الثواب الجزيل ، والشهداء نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ومن خلفهم ، أما الذين جحدوا بوحداية الله ، وكذبوا بآياته أولئك هم الخلود في النار مخصوص بالكفار من حيث إن الصيغة تشعر بالاختصاص ، والصحة تدل على الملازمة .

وفي المعنى ذاته يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩١﴾ [سورة الحشر: ٩١] . والمعنى والذين اتخذوا المدينة منزلاً وسكناً ، وآمنوا قبل كثير من المهاجرين وهم الأنصار - رضي الله عنهم - . يقول القرطبي : " والذين تبوأوا الدار من قبل المهاجرين . والتبوء : هو التمكين والاستقرار واعتقدوا الإيمان وأخلصوه ، لأن الإيمان ليس بمكان يتبوء ، كقوله تعالى : فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ وليس يريد أن الأنصار آمنوا قبل المهاجرين ، بل أراد آمنوا قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إليهم .

ثم تتحدث الآية عن الإيثار وهو قوله : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . وهو موطن الشاهد لدينا : ومعناه : ومن حمد الله ، وسلم من البخل فقد أفلح ونجح والشح هو البخل الشديد مع الجشع والطمع ، وهو غريزة في النفس ولذلك أضيف إليها فقال : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . فأضاف الشح إلى النفس . ويقول عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - : " ليس الشح أن يمنع الرجل ماله ، وإنما الشح أن تطمع عينه فيما ليس له " . وفي الحديث : " اتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَىٰ أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ " (١)

وعن أبوزرعة حدثنا أبو هريرة - رضي الله عنه - قال : جاء رجلٌ إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الصَّدَقَةِ أَكْبَرُ أَجْرًا .

إنما نحسن اليكم ابتغاء مرضاة الله ، وطلب ثوابه ، ونحن لا نبتغى من وراء هذا الإحسان مكافأة ، ولا نقصد الحمد والثناء منكم .
يقول " مجاهد " - رضي الله عنه - : " أما والله ما قالوا بألسنتهم ، ولكن علم الله به من قلوبهم ، فأثنى عليهم به ، ليرغب فى ذلك راغب .
هذا هو القرآن الكريم الذى جعل الفداء والاستشهاد والإيثار خُلُقاً من أخلاقه ، وطالب المسلمين أن يحولوا هذه التوجهات إلى أعمال ، كى يفوزوا بسعادة الدارين ، الدنيا والآخرة والفوز برضوان الله - سبحانه وتعالى - حتى يُكُون المسلم مجتمعاً متماسكاً قوى البنيان ، مجتمعاً متكافلاً تسوده المحبة ، ويعمه الانفاق والإيثار ، وحتى يكون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

1- صفوة التفاسير ، ج ٣ ، ص ٢٣٤ بتصرف .

□ ذاته ، ص ٤٥٣ بتصرف .

□ تفسير البيضاوى ج ٣ ، ص ٣٧١ .

□ تفسير أبو السعود ج ٤ ، ص ٢٠٣ .

□ لطائف الاشارات ج ٣ ، ٤٤٠ .

□ زاد المسير لابن الجوزى ج ٦ ، ص ٣٥٤ .

□ تفسير القرطبي ج ١٤ ، ص ١٢٦ .

□ تفسير المراغى ج ٩ ، ص ٤٨ - ٥٢ .

□ حاشية الصاوى ج ٤ ، ١٩٠ .

□ روح المعانى ج ٢٩ ، ص ١٥٥ .

الثقة فى وعد الله

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة " الثقة فى وعد الله " - سبحانه وتعالى - وهى خلق ينبع من الإيمان الصادق ، واليقين الثابت والعقيدة التى لا تزغها الأحداث ، ولا تهزها الأعاصير ولا تعبت بها نكبات الدهر ، ولا كراحدثان ، ولا تعاقب الدهور والأزمان ، فقد وعد الله المؤمنين بجنات عرضها السماوات والأرض أعددا للمتقين ، والأولياء ، والصالحين ، كما وعدهم - عزوجل - بأن يرزقهم ، ويوفقهم ، ويسر لهم أمورهم فى الدنيا والآخرة إن هم اتقوه ، وخافوه ، آمنوا به ، وصدقوا برسله وبما أنزل على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وباليوم الآخر، والبعث والنشور، والنصرة على الأعداء ، إن هم جاهدوا فى سبيل الله جهاداً صادقاً لإعلاء كلمته ، ورفع رايات التوحيد عالية خفاقة فى كل أرجاء المعمورة .

فالثقة فى وعد الله لون من ألوان الأخلاق التى وردت فى كتاب الله العزيز القرآن الكريم فيقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [سورة الحج: ١٥].

والمعنى : من كان يظن أن لن ينصره الله ، يقول مجاهد - رضى الله عنه - : " أن يرزقه الله ، والنصر فى كلام العرب هو الرزق . يقول الأعشى :

أبوك الذى أجرى على بنصره
معناه أن لن يطر أرضه ، ومنه قول رؤبة :

إنى وأسطار سطران سطرًا
لقائل يا نصر نصر نصرًا

ويقال للأرض الممطرة أرض منصورة .

{ فى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ } والنصر فى الدنيا بالعلبة ، وفى الآخرة بظهور الحجة . ويحتمل وجهاً آخر أن يكون النصر فى الدنيا علو الكلمة ، وفى الآخرة علو المنزلة { فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ } فيه تأويلان :

أحدهما : فليمدد بحبل إلى سماء الدنيا ليقطع الوحي عن محمد ثم لينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ أي يذهب الكيد منه ما يغيظه من نزول الوحي عليه .

والثاني : يقول السدي : فليمدد بحبل إلى سماء بيته وهوسقفه ، ثم ليخنق به نفسه فلينظر هل يذهب ذلك بغيظه من ألا يرزقه الله تعالى .

ويقول صاحب اللطائف : " أي أن الحق - سبحانه - يرغم اعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَمَنْ لَمْ يُطِبْ نَفْسَهُ بِشُهُودٍ تَخْصِيصِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ بِمَا أْفَرَدَهُ بِهِ فَلْيَقْتُلْ نَفْسَهُ مِنَ الْغِيظِ حَقًّا ، ثم لا ينفعه ذلك كما قيل :

إِنْ كُنْتَ لَا تَرْضَى بِمَا قَدْ تَرَى فَدُونَكَ الْحَبْلُ بِهِ فَاخْتَقِ

ويمضى القرآن الكريم في الحديث عن هذا الخلق وهوالثقة في وعد الله فيقول تعالى : ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٢٢] . والمعنى : لما رأى المؤمنون الكفار قادمين نحوهم ، وقد أحاطوا بهم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم ، قالوا : " هذا ما وعدنا الله ورسوله من المحنة والابتلاء ، ثم النصر على الأعداء ، وصدق الله في وعده ، وصدق رسوله فيما بُشِّرَ به .

يقول المفسرون : " يقول : معتب بن قشير وأصحابه : لما كان حيث أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحفر الخندق ، عرض لنا في بعض الجبل صخرة عظيمة شديدة لا تدخل فيها المعاول ، فاشتكيننا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآها أخذ المعول ، وألقى ثوبه وقال : « بسم الله ، ثم ضرب ضربة فكسر ثلثها ، وقال : الله أكبر . أعطيت مفاتيح الشام ، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة ، ثم ضرب الثانية ، فقطع ثلثاً آخر فقال : الله أكبر . أعطيت مفاتيح فارس ، والله إني لأبصر قصور المدائن البيض ، ثم ضرب الثالثة فقال : بسم الله . فقطع بقية الحجر وقال : الله أكبر . أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إني لأبصر أبواب صنعاء » .

فلما أقبلت جموع المشركين ورأوهم قالوا : " هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - وما زادهم الذي رأوه من كثرة جند الأحزاب المتحزبة ضد الإسلام والمسلمين ، ومن شدة الضيق والحصار إلا إيماناً قوياً عميقاً بالله ، واستسلاماً وانقياداً لأوامره .

ومثلها قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرَتُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ [سورة فاطر: ٥] . ومثلها أيضاً قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ قَالُوا يَتَّبِعُنَا مِنْ بَعْثِنَا مَنْ مَرَّقِدْنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [سورة يس: ٥٢] . ومثلها أيضاً قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَلْبِيُّونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [سورة الصافات: ١٧١ : ١٧٣] . ومثلها أيضاً قوله - سبحانه وتعالى : ﴿ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة ص: ١١] . ومثلها أيضاً قول المولى - عز وجل - ﴿ قَالُوا أَوْلَمَ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَوْا إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذرتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٥٥﴾ ﴾ [سورة غافر: ٥٠ : ٥٥] . وأيضاً ﴿ فَاصْبِرْ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَكَمَا نُرِيَّتَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَوَقَّيْتِكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة غافر: ٧٧] . والمعنى : أي نصر الرسل والمؤمنون بالحجة والظفر ، والانتقام لهم من الكفرة المجرمين في هذه الحياة الدنيا ، وفي الآخرة يوم يحضر الأشهاد الذين يشهدون بأعمال العباد ، من ملك ، نبي ، ومؤمن . يقول الإمام الفخر الرازي : " والآية وعد من الله تعالى لرسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن ينصره على أعدائه في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿قَالُوا أَوْلَم تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَادَعْتُوا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٥٥﴾﴾

[سورة غافر: ٥٠ : ٥٥]. والمعنى : فاصبر ايها الرسول لأمر ربك وبلغ قومك ، ومن أمرت بإبلاغه ما لأنزل إليك ، وأيقن بأن الله منجز وعده ، وناصرك ومن صدقك ، وأمن بك ، على من كذبك وأنكر ما جئت به من عند ربك ، وسل ربك غفران ذنبك ، وعفوه عنك ، وصل شكرياً لله طرفى النهار ، كما جاء فى قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿وَاقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفُلًا مِّنَ اللَّيْلِ...﴾ [سورة هود: ١١٤]. وقد يكون المراد من ذلك المواظبة على ذكر الله ، وألا يفتر اللسان عنه ، ولا يغفل القلب حتى يدخل فى زمرة الملائكة الذين قال الله تعالى فى وصفهم : ﴿يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٠].

وفى المعنى نفسه يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿فَاصْبِرْ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَكَمَا نُرِيَّتَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَفَّيْتَكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ [سورة غافر: ٧٧]. والمعنى : فاصبر أيها الرسول على ما يجادلك به المشركون فى آيات الله التى أنزلها عليك وعلى تكذيبهم إياك ، فإن الله منجز لك فيهم ما وعدك من الظفر بهم ، والعلو عليهم . وإحلال العقاب بهم ، إما فى الدنيا ، وإما فى الآخرة ، مثلها قول الله تعالى فإما ما نرينك بعض الذى نعدهم من العذاب والنقمة ، مثل القتل والأسر " يوم بدر " فذاك ما يستحقونه ، أو نتوفينك مثل ذلك ، فإلينا يرجعون يوم القيامة ، فنجازيهم بأعمالهم ، وننتقم مهم أشد الانتقام ، نأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

ومثلها قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمًا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِينَ نَعَدْتَهُمْ أَوْ تَتَوَفَّيْتَنَّا فَإِنَّا يَرْجِعُونَ ﴾ (٧٧) [سورة غافر: ٧٧]. ومثلها قول الحق : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۗ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (٢٧) [سورة الفتح: ٢٧]. وقوله تعالى أيضا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْلَيْتِكَ فِي الْآذَانِ ﴾ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبِينَ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّا اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [سورة المجادلة: ٢٠: ٢١] وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [سورة الصف: ٩]. وقوله تعالى أيضا : ﴿ وَأُخْرَىٰ يُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الصف: ١٣].

وفى المعنى ذاته يقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۗ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لِيُكَلِّفَ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً ءَاتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (٧) [سورة الطلاق: ٧]. والمعنى : هذا بيان لقدرة الإنفاق . والمعنى : لينفق الزوج على زوجته ، وعلى ولده الصغير ، على قدر وسعه وطاقته . يقول صاحب التسهيل : " لينفق ذو سعة من سعته أمر بأن ينفق كل واحد على مقدار حاله ولا يكلف الزوج ما لا يطيق ولا تضيع الزوجة بل يكون الحال معتدلاً وفي الآية دليل على أن النفقة تختلف باختلاف أحوال الناس ، يسراً وعسراً . ومن ضيق عليه رزقه فكان دون الكفاية فلينفق على مقدار طاقته ، وعلى قدر ما آتاه من المال . فلا يكلف الله أحداً إلا بقدر طاقته واستطاعته ، فلا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغنى .

يقول أبو السعود: { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتِنَهَا } فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا ، وَفِيهِ تَطْلِيْبٌ لِقَلْبِ الْمَعْسُرِ وَلِذَلِكَ وَعَدَ لَهُ بِالْيَسْرِ فَقَالَ : { سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا } أَي عَاجِلًا وَأَجَلًا . أَي بَعْدَ الشَّدَةِ السَّعَةِ وَالرِّخَاءِ ، وَفِيهِ بَشَارَةٌ لِلْفُقَرَاءِ بِفَتْحِ أَبْوَابِ الرِّزْقِ عَلَيْهِمْ .

هذه هى الثقة فى الله وفى وعده الذى وعد به عباده المؤمنين ، وإن وعده لن يتخلف ، حيث إن الله لا يخلف الميعاد ، والآيات التى سقناها آنفا تؤكد صدق قولنا ، فالله هو الحق ، ووعده الصدق الذى لا يتخلف . (١)

1- التسهيل فى علوم التنزيل ج ٤ ، ص ١٢٩ .

□ تفسير أبو السعود ج ٥ ، ص ١٧٢ .

□ تفسير المراعى ج ٨ ، ص ٩٦ .

□ ذاته ص ٨٢ - ٨٣ .

□ لطائف الاشارات ج ٢ ، ص ٥٣٣ ، ٣٣٤ .

□ النكت و العيون للماوردى ج ٢٧ ، ص ٧٥ .

□ صفوة التفاسير ج ٢ ، ص ٥٢١ .

عدم قبول الرشوة

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة " عدم قبول الرشوة " وهو خلق قرآني حيث إن الإسلام يحرم الرشوة ، لأنها تفسد حياة المسلمين وهي داء ينخر في جسد الأمة الإسلامية ، ويورده موارد الهلاك كما أنه يترتب على شيوع الرشوة في المجتمع فساد حياتهم ، وضياع حقوق الآخرين ، فضلاً عن أنها حرام بل هي "سُحَّتْ" يأكله المرتشي . ويقول – صلى الله عليه وسلم – : " لعن الله الراشي والمرتشي والرائش " . والرائش هو الوسيط الذي يقوم بتوصيل الرشوة للمرتشي ، فإنه يأخذ نفس الحكم وهو اللعنة من الله – عز وجل – .

وقد رفض سيدنا " سليمان " – عليه السلام – هدية بلقيس ملكة سبأ وكانت بلقيس قد بهتت وأرسلت هدية لسيدنا سليمان – عليه السلام – لتختبره ، وتمتحنه ، ولذلك عللت إرسالها الهدية بقولها : " إن قبل الهدية فهو ملك نقاتله ، وإن لم يقبل الهدية فهو نبي نؤمن به .

ويقول ابن عباس – رضي الله عنهما – : " قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه. ولذلك يقول الإمام أبوحنيفة – رحمه الله تعالى – : " إذا ارتشى الإمام وجب عزله ، وبطل كل حكم كان قد حكم به لأنه يُعَدُّ فاسقاً ، ولا يجوز حكومة الفاسق " . والمقصود بالإمام كل من ولي أمر من أمور المسلمين صغر أم كبير .

فالهدية رشوة إن قدمت لغرض من الأغراض الدنيوية كالحصول على حق ليس لك ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استعمل رجلاً من الأنصار يقال له ابن اللتبية على الصدقة ، فلما قدم بعث إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليحاسبه ، فقال : هذا لكم ، وهذا أهدي إلي ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « إنا نستعمل رجلاً منكم على ما ولانا الله ، فإذا قدم أحدكم قال : هذا لكم ، وهذا أهدي إلي ، فهلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر ما يهدى إليه ، من عمل لنا منكم عملاً فليأتنا بقبيله وكثيره ، وليحذر أحدكم أن يأتي يوم القيامة ببعير يحمله على رقبتة له رغاء أوبقرة لها خوار أو شاة تيعر » .

فيها، ففعل ذلك. والظاهر أن سليمان، عليه السلام، لم ينظر إلى ما جاءوا به بالكلية، ولا اعتنى به، بل أعرض عنه، وقال منكرًا عليهم: { أَمْتِدُونِي بِمَالٍ } أي: أنصنعونني بمال لأترككم على شرككم وملككم؟! { فَمَاءَاتِنِ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ } أي: الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه، { بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ نَفْرَحُونَ } أي: أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف.

قال الأعمش، عن ابن عباس، رضي الله عنه: أمر سليمان الشياطين فموهوا له ألف قصر من ذهب وفضة. فلما رأت رسلها ذلك قالوا: ما يصنع هذا بهديتنا. وفي هذا دلالة على جواز تهيوء الملوك وإظهارهم الزينة للرسل والقصاد.

ويقول القرطبي: " قوله تعالى: وأنى مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فيه ست مسائل: الأولى - قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ... ﴾ [سورة النمل: ٣٥] هذا من حسن نظرها وتدييرها، أي إني أجرب هذا الرجل بهدية، وأعطيه فيها نفائس من الأموال، وأعرب عليه بأموار المملكة، فإن كان ملكا دنياويا أرضاه المال وعملنا معه بحسب ذلك، وإن كان نبيا لم يرضه المال ولازمننا في أمر الدين، فينبغي لنا أن نؤمن به ونتبعه على دينه، فبعثت إليه بهدية عظيمة أكثر الناس في تفصيلها، فقال سعيد بن جبيرة عن ابن عباس: أرسلت إليه بلينة من ذهب، فرأت الرسل الحيطان من ذهب فصغر عندهم ما جاءوا به.

وقال مجاهد: أرسلت إليه بمائتي غلام ومائتي جارية. وروى عن ابن عباس: بائنتي عشرة وصيفة مذكرين قد ألبستهم زى الغلمان، واثنى عشر غلاما مؤنثين قد ألبستهم زى النساء، وعلى يد الوصائف أطباق مسك وعنبر، وبائنتي عشرة نجبية تحمل لبن الذهب، ويخرزتين إحداها غير مثقوبة، والأخرى مثقوبة ثقباً معوجاً،

وبقدح لا شئ فيه، وبعضا كان يتوارثها ملوك حمير، وأرسلت الهدية مع جماعة من قومها.

وقيل: كان الرسول واحدا ولكن كان في صحبته أتباع وخدم.

وقيل: أرسلت رجلاً من أشرف قومها يقال له المنذر بن عمرو، وضمت إليه رجلاً ذوى رأى وعقل، والهدية مائة وصيف ومائة وصيفة، وقد خولف بينهم في اللباس، وقالت للغلمان: إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام فيه تأنيث يشبه كلام النساء، وقالت للجواري: كلمنه بكلام فيه غلظ يشبه كلام الرجال، فيقال: إن الهدهد جاء وأخبر سليمان بذلك كله.

وقيل: إن الله أخبر سليمان بذلك، فأمر سليمان عليه السلام أن يبسط من موضعه إلى تسع فراسخ بلبنات الذهب والفضة، ثم قال: أي الدواب رأيتم أحسن في البر والبحر؟ قالوا: يا نبي الله رأينا في بحر كذا دواب منقطة مختلفة ألوانها، لها أجنحة وأعراف ونواصي، فأمر بها فجاءت فشددت على يمين الميدان وعلى يساره، وعلى لبنات الذهب والفضة، وألقوا لها علوفاتها، ثم قال: للجن على بأولادكم، فأقامهم - أحسن ما يكون من الشباب - عن يمين الميدان ويساره.

ثم قعد سليمان عليه السلام على كرسيه في مجلسه، ووضع له أربعة آلاف كرسي من ذهب عن يمينه ومثلها عن يساره، وأجلس عليها الأنبياء والعلماء، وأمر الشياطين والجن والإنس أن يصطفوا صفوفاً فراسخ، وأمر السباع والوحوش والهوام والطيور فاصطفوا فراسخ عن يمينه وشماله، فلما دنا القوم من الميدان ونظروا إلى ملك سليمان، ورأوا الدواب التي لم تر أعينهم أحسن منها تُروث على لبنيات الذهب والفضة، تقاصرت إليهم أنفسهم، ورموا ما معهم من الهدايا.

وفي بعض الروايات: إن سليمان لما أمرهم بفرش الميدان بلبنات الذهب والفضة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعاً على قدر موضع بساط من الأرض غير مفروش، فلما مروا به خافوا أن يتهموا بذلك فطرحوا ما معهم في ذلك المكان، فلما رأوا الشياطين رأوا منظراً هائلاً فظلياً ففزعوا وخافوا، فقالت لهم الشياطين: سيروا لا بأس عليكم، فكانوا يمرون على كردوس كردوس من الجن والإنس والبهائم والطيور

والسباع والوحوش حتى وقفوا بين يدي سليمان، فنظر إليهم سليمان نظراً حسناً بوجه طلق، وكانت قالت لرسولها: إن نظر إليك نظر مغضب فاعلم أنه ملك فلا يهولنك منظره فأنا أعزم منه، وإن رأيت الرجل بشاً لطيفاً فاعلم أنه نبي مرسل فتفهم القول وردد الجواب، فأخبر الهدد سليمان بذلك على ما تقدم.

وكانت عمدت إلى حقه من ذهب فجعلت فيها درة يتيمة غير مثقوبة، وخررة معوجة الثقب، وكتبت كتاباً مع رسولها تقول فيه: إن كنت نبياً فميز بين الوصفاء والوصائف، وأخبر بما في الحقّة، وعرفني رأس العصا من أسفلها، واتقب الدرة ثقباً مستويا، وأدخل خيط الخرزة، واملاً القدح ماءً من ندى ليس من الأرض ولا من السماء، فلما وصل الرسول ووقف بين يدي سليمان أعطاه كتاب الملكة فنظر فيه، وقال: أين الحقّة؟ فأتى بها فحركها، فأخبره جبريل بما فيها، ثم أخبرهم سليمان.

فقال له الرسول: صدقت، فاتقب الدرة، وأدخل الخيط في الخرزة، فسأل سليمان الجن والإنس عن ثقبها فعجزوا، فقال للشياطين: ما الرأي فيها؟ فقالوا: ترسل إلى الأرضة، فجاءت الأرضة فأخذت شعرة في فيها حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها سليمان: ما حاجتك؟ قالت: تصير رزقي في الشجرة، فقال لها: لك ذلك.

ثم قال سليمان: من لهذه الخرزة يسلكها الخيط؟ فقالت دودة بيضاء: أنا لها يا نبي الله، فأخذت الدودة الخيط في فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها سليمان: ما حاجتك؟ قالت تجعل رزقي في الفواكه، قال: ذلك ذلك.

ثم ميز بين الغلمان والجواري.

قال السدي: أمرهم بالوضوء، فجعل الرجل يحدر الماء على اليد والرجل حدرا، وجعل الجواري يصبين من اليد اليسرى على اليد اليمنى، ومن اليمنى على اليسرى، فميز بينهم بهذا. وقيل: كانت الجارية تأخذ الماء من الأنية بإحدى يديها، ثم تحملها على الأخرى، ثم تضرب به على الوجه، والغلام كان يأخذ الماء من الأنية

يضرب به في الوجه، والجارية تصب على بطن ساعدها، والغلام على ظهر الساعد، والجارية تصب الماء صباً، والغلام يحدر على يديه، فميز بينهم بهذا. وروى سعيد بن جبير قال : أرسلت بلقيس بمائتي وصيفة ووصيف، وقالت: إن كان نبيا فسيعلم الذكور من الإناث، فأمرهم فتوضئوا، فمن توضأ منهم فبدأ بمرفقه قبل كفه قال هو من الإناث، ومن بدأ بكفه قبل مرفقه قال هو من الذكور، ثم أرسل العصا إلى الهواء فقال: أي الرأسين سبق إلى الأرض فهو أصلها، وأمر بالخيول فأجريت حتى عرقت وملا القدر من عرقها، ثم رد سليمان الهدية، فروى أنه لما صرف الهدية إليها وأخبرها رسولها بما شاهد، قالت لقومها: هذا أمر من السماء.

الثانية - كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثبت عليها ولا يقبل الصدقة ، وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

وإنما جعلت بلقيس قبول الهدية أوردتها علامة على ما في نفسها ، على ما ذكرناه من كون سليمان ملكاً أوثياً، لأنه قال لها في كتابه : " ألا تعلموا على وأتوني مسلمين " وهذا لا يُقبل فيه فدية، ولا يؤخذ عنه هدية، وليس هذا من الباب الذي تقرر في الشريعة عن قبول الهدية بسبيل، وإنما هي رشوة وبيع الحق بالباطل، وهي الرشوة التي لا تحل.

وأما الهدية المطلقة للتحبيب والتواصل فإنها جائزة من كل أحد وعلى كل حال، وهذا ما لم يكن من مشرك. فإن كانت من مشرك ففي الحديث " نهيت عن زيد المشركين " يعنى رَفَدَهم وعطاياهم . والمعنى فيها: أنه كان لا يقبل هدية من يطمع بالظهور عليه وأخذ بلده ودخوله في الإسلام، وبهذه الصفة كانت حالة سليمان عليه السلام، فعن مثل هذا نهى أن تقبل هديته حملاً على الكف عنه .

هذه هى الأخلاق القرآنية والتي توجهنا وترشدنا إلى الخلق القويم ، وترك المعاصي والمنكرات والمفاسد ، حتى يستقيم المجتمع ويصلح حاله ، فبعدم قبول الرشوة التى تفسد المجتمع حاكماً ومحكوماً ، وتوكل الحق إلى غير أهله وتفتت فى عضد الأمة وبالرجوع إلى الأخلاق التى يرشدنا إليها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة نسود ، ونقود ويعم الخير والعدل سائر أرجاء المعمورة . (١)

1 - النكت و العيون للمواردى ج ٤ ، ص ٢٠٩ - ٢١١ .

■ مختصر تفسير ابن كثير ج ٢ ، ص ٦٧١ .

■ لطائف الاشارات للقشيري ج ٣ ، ص ٣٧ .

ابتغاء الرزق عند الله

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة والتي يوجهنا إليها المولى - سبحانه وتعالى - " ابتغاء الرزق عند الله " حيث إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين . ويقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٢]. فالله - سبحانه وتعالى - هو الخالق العليم بأحوال العباد وهو الذي أنشأهم ، وتكفل بأرزاقهم ، وأرزاق كل من خلقه حتى النملة السوداء ، فى الصخرة الصماء . وحين يتخلق الطفل فى رحم أمة ، ويبلغ الطور الذى يرسل الله فيه الملك الموكل ينفخ الروح فى أمره بأن يكتب فى جبهته أربع كلمات " رزقه ، وأجله ، وهل شقى أم سعيد ، فأول كلمة تكتب هى الرزق ، وذلك دليل على أن الله هو المتكفل بأرزاق العباد فالواجب على المسلم أن يبتغى رزقه عند ربه ، متوكلاً عليه - سبحانه وتعالى - والمراد بالشقاوة هى الكفر والعياذ بالله تعالى منه ، وبالسعادة هى الإيمان : يقول - عليه الصلاة والسلام - : " السعيد من مات على الإيمان ، والشقى من مات على الكفر .

وفى هذا المعنى يقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْكُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [سورة ١٥٠] ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٠: ١٥١]

روى عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يبايعني على هؤلاء الآيات ثم قرأ : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴾

استقلاله به من حيث المعرفة بدل استقلال غيره بطعامهم ، وإلى شراب محبته الذي يقوم بل استقلال غيره بشرابهم .

ومثلها قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة العنكبوت: ١٧] . وقوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [سورة العنكبوت: ٦٠] . وقوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِمْ ﴿٦٢﴾ ﴾ [سورة العنكبوت: ٦٢] . وأيضا قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُم مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة الروم: ٢٨] . ومثلها قوله تعالى : ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الروم: ٣٧] . وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُمْ مِّنْ شَيْءٍ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [سورة الروم: ٤٠] . وأيضا قوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوَا مِّن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة سبأ: ١٥] . والمعنى : والله لقد كان لسبأ في موضع سكناهم باليمين والشمال آية عظيمة دالة على الله - سبحانه وتعالى - وعلى قدرته على مجازاة المحسن بإحسانه ، والمسئئ بإساءته ، فإن قوم سبأ لما كفروا بنعمة الله حرب الله ملكهم ، وشتتت شملهم ، ومزقهم شر ممزق ، وجعلهم عبرة لمن يعتبر ، ثم بين الله تعالى وجه تلك النعمة فقال : جنتان عن يمين وشمال . " . يعنى حديقتان عظيمتان فيهما من كل أنواع الفواكه ، والثمار عن يمين والوادي بساتين ناضرة ، وعن شماله كذلك .

يقول قتادة - رضي الله عنه - : " كانت بساتينهم ذات أشجار وثمار تسر الناس بظلالها ، ولم يرد جنتين ثنتين ، بل أراد من الجهتين يمنة ويسرة . . قال الرمخشري : وإنما أراد جماعة من البساتين عن يمين بلدتهم ، وأخرى عن شمالها ،

فصاروا أيادي لا يقدر ن منه على شرب طفل فطم وقال المفسرون / إنها أي هذه البلدة كان إذا مر بها مريض شفاه الله ، وليس بها قمل ، ولا ضفادع ولا حيات لطيب هوائها ، وصفاء جوها ، واعتدال مناخها .

ويقول المولى - سبحانه وتعالى - : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة سبأ: ٢٤] .
وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة سبأ: ٣٦] . ومثلها قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا هُوَ فَأَن تُوَفَّقُوا ﴾ ﴿٣﴾ [سورة فاطر: ٣] .

والمعنى : اشكروا ربكم على نعمه التي لا تعد ولا تحصى التي أنعم بها عليكم . يقول الزمخشري : " ليس المراد بذكر النعمة ذكرها باللسان فقط ، ولكن به وبالقلب ، وحفظها من الكفران والغمط وشكرها بمعرفة حقها والاعتراف بها وطاعة مؤليها . ومنه قول الرجل لمن أنعم عليه : اذكر أيادي عندك أى يريد حفظها وشكرها والعمل على موجبها ، والخطاب عام للجميع لأن جميعهم مغمورون في نعمة الله . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : يريد : يا أهل مكة اذكروا نعمة الله عليكم ، حيث اسكنكم حرمة ومنعكم من جميع العالمين ، والناس يتخطفون من حولكم . ومنه : نعمة الله العافية .

" هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ " . وهو استفهام استنكاري بمعنى النفي . يعنى : " لا خالق غيره تعالى ، لا وما تعبدون من الأصنام ، والله - سبحانه وتعالى - هو المنعم على العباد بالرزق والعطاء ، فهو الذى ينزل المطر من السماء ، ومخرج النبات من الأرض ، فكيف تشركون به ما لا يخلق ، ولا يرزق من الأوثان والأصنام ؟ . ولهذا يقول الحق - سبحانه وتعالى - : لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . أى لا رب ولا معبود سوى الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، فكيف تتصرفون بعد هذا البيان والتوضيح ، ووضوح البراهين والأدلة ،

والأنعام ، ولا يملك ذلك إلا الله - سبحانه وتعالى - وذلك آية من آيات الله الباهرة الدالة على كمال قدرته ، وعظيم جبروته ووحدانيته .

يقول المفسرون : " موت الأرض بالجذب ، وحيائها بالغيث فإذا أنزل الله عليها الغيث والماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج . فكل هذا دليل على أنه واجب على المسلم أن يبتغى الرزق من عند الله . وقد ضرب الله المثل للبعث والحشر بإحياء الأرض بالنبات في الكثير من الآيات ، وذلك على أن الرزق هو من عند الله الذي يحيي الأرض بعد موتها فيجب الاعتماد عليه وطلب الرزق عنده سبحانه .

ومثلها قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الزمر: ٥٢]. وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُم مَّا آيَنتَهُ وَيُزِيلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [سورة غافر: ١٣] ، وقوله تعالى : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة الشورى: ١٢].

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ [سورة الشورى: ١٩]. وأيضا قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ [سورة الشورى: ٢٧]. ومثل هذه الآيات في المعنى قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَمِن مَّا آيَنتَهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ [سورة الشورى: ٢٩]. وفي نفس المعنى قول الحق - عز وجل - : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [سورة ق: ١١]. والمعنى : ونزلنا من السحاب ماءً كثير المنافع والبركة فأخرجنا به البساتين الناضرة ، والأشجار المثمرة ، وحب الزرع المحصود ، مثل الحنطة ، والشعير ، سائر الحبوب التي تحصد ، كما أخرجنا شجر النخيل طوالاً مستويات لها طلع منضود منظم بعضه فوق بعض .

ويقول صاحب اللطائف : " قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴾ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [سورة الذاريات: ٥٦: ٥٨]. الذين اصطفاهم في آزالي ، وخصصتهم - اليوم - بحسن إقبالي ، ووعدهم جزيل أفضالي - ما خلقتهم إلا ليعبدون . والذين سخطت عليهم في آزالي ، وربطتهم - اليوم - بالخذلان فيما كلفتهم من أعمالهم ، وخالقت النار لهم - بحكم إلهيتي ووجوب حكمي في سلطاني - ما خلقتهم إلا لعذابي وأنكالي ، وما أعددت لهم من سلاسل وأغلال . ما أريد منهم أن يطعموا أو يرزقوا أحداً من عبادي فإن الرزاق أنا . وما أريد أن يطعمون فإنني أنا الله { ذُو الْقُوَّةِ } : المتين القوى . قوله جلّ ذكره : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (٥٩) [سورة الذاريات: ٥٩]. لهم نصيبٌ من العذابٍ مثل نصيب من سلف من أصحابهم من الكفار فلم استعجال العذاب - والعذاب لن يفوتهم؟ لقوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ (٦٠) [سورة الذاريات: ٦٠]. وهو يوم القيامة .

ومثلها في المعنى قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ (١٠) فِيهَا فَكَيْهَةٌ وَالنَّخْلَ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾ [سورة الرحمن: ١٠: ١٢]. { وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ } أي بسطها ووطأها للأنام ليستقروا عليها ويقناتوا منها . وفي الأنام ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهم الناس ، قاله ابن عباس ، وفيه قول بعض الشعراء في رسول الله صلى الله عليه وسلم :

مبارك الوجه يستسقى الغمام به ما في الأنام له عدل ولا خطر

الثاني : أن الأنام الإنس والجن ، قاله الحسن .

الثالث : أن الأنام جميع الخلق من كل ذي روح ، قاله مجاهد ، سمي بذلك لأنه ينام ، قال الشاعر :

جاد الإله أبا الوليد ورهطه رب الأنعام وخصه بسلام
ونحن نميل إلى هذا الرأي ، وهو أن المراد " بالأنام " كل ما خلقه الله من
كل ذي روح وهو الأنسب والمراد .

{ فِيهَا فَكِّهَةٌ وَالسَّحْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ } فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أن ذات الأكمام النخل ، وأكمامها ليفها الذي في أعناقها ، قاله
الحسن .

الثاني : أنه رقبة النخل التي تكتم فيه طلعاً ، ومنه قول الشاعر :

وذات أثماره أكلت عليها نباتاً في أكمة قفار

الثالث : أنه الطلع المكتم الذي هو كمام الثمرة ، قاله ابن زيد .

الرابع : أن معنى ذات الأكمام أي ذوات فضول على كل شيء ، قاله ابن

عباس .

{ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ } أما الحب فهو كل حب خرج من أكمامها

كالبر والشعير . وأما العصف ففيه ثلاثة أقاويل :

قال ابن عباس : تبين الزرع وورقه الذي تعصفه الريح .،

وقيل : أنه الزرع إذا اصفر ويبس .

الثالث : أنه حب المأكول منه ، قاله الضحاك ، كما قال تعالى :

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [سورة الفيل: ٥]. وأما الريحان ففيه خمسة

أوجه :

أحدها : أنه الرزق ، قاله مجاهد ، وكقول العرب تقول : خرجنا نطلب

ريحان الله أي رزقه ، ويقال سبحانه وريحانك أي رزقك ، وقال النمر بن تولب :

سلام الإله وريحانه ورخيته وسماه درر

قال الضحاك : ورخيته هي لغة حمير .

قال ابن عباس : أن الريحان الزرع الأخضر الذي لم يسنبل .،

الثالث : أنه الريحان الذي يشم ، قاله الحسن .

وأما : أن العصف الورق الذي لا يؤكل والريحان هو الحب المأكول .

من أحد غير الله ثقةً منهم في ربهم - سبحانه وتعالى - فهم يبتغون الرزق والفضل والرضوان منه - عز وجل - .

ويقول صاحب اللطائف : " يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وهو الرزق ، ورضواناً بالثواب في الآخرة ، وينصرون دين الله - عز وجل - أولئك هم الصادقون ، والفقير الصادق هو الذي يترك كل سبب ، وعلاقة ، ويفرغ في أوقاته لعبادة الله ، ولا يعطف بقلبه على شيء سوى الله ، ويقف مع الحق راضياً بجريان حكمه فيه .

ومثلها في المعنى قوله - سبحانه وتعالى - ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سورة الجمعة: ١١] . والمعنى : والله خير الرازقين . يقول أهل العلم : وذكر الكلبي وغيره : أن الذي قدم بها دحية بن خليفة الكلبي من الشام عند مجاعة وغلاء سعر وكان معه جميع ما يحتاج الناس من بُر ودقيق وغيره فنزل عند أحجار الزيت وضرب بالطليل ليؤذن الناس بقدمه فخرج الناس إلا اثنا عشر رجلاً وقيل : أحد عشر رجلاً قال الكلبي وكانوا في خطبة الجمعة فانفضوا إليها وبقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانية رجال .

وروى أنه بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة إذا أقبلت غير تحمل الطعام حتى نزلت بالبيع فالتفتوا وانفضوا إليها وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم معه إلا أربعون رجلاً أنا فيهم ، قال : وأنزل الله عز وجل على النبي صلى الله عليه وسلم { وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا } . قال الدارقطني : لم يقل في هذا الإسناد إلا أربعين رجلاً غير علي بن عاصم عن حصين وخالفه أصحاب حصين فقالوا : لم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا اثنا عشر رجلاً وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : والذي نفسي بيده لو خرجوا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادي نارا .

يقول ابن كثير - رحمه الله تعالى - : " وينبغي أن يعلن أن هذه الفضة كانت لما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقدم الصلاة على الخطبة كما

هو الحال في العيدين . كما روى أبوداود . قل لهم يا محمد – صلى الله عليه وسلم- " إن ما عند الله من الثواب الجزيل . والأجر العظيم الكبير خير مما أصبته من اللّهُ ومن التجارة ، الله – سبحانه وتعالى – خير من رزق وأعطى ، فاطلبوا منه الرزق ، وبه استعينوا لنيل فضله وإنعامه .

وفى المعنى نفسه يقول الله – عزوجل - : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ

الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾]سورة الملئك: ١٥]. والمعنى : إن ربكم هو الذى سخر الأرض ، وذلكها لكم فجعلها قارة ساكنة ، لا تמיד ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال التى تجعلها ثابتة راسخة ، وأوجد فيها من العيون والآبار لسقيكم ، وسقى أنعامكم ، وزروعكم ، وشارككم وسلك فيها السبل ، فيافروا حيث شئتم من أقطارها ، وترددوا فى أرجائها لأنواع المكاسب والتجارات ، وكلوا مما أوجده لكم فيها بفضله من واسع الأرزاق ، السعى على الأرزاق لا يتنافى مع التوكل على الله .

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا " (١) . قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : وليس في هذا الحديث دلالة على القعود عن الكسب بل فيه ما يدل على طلب الرزق لأن الطير إذا غدت فإنما تغدو لطلب الرزق وإنما أراد . والله تعالى أعلم . لو توكلوا على الله تعالى في ذهابهم ومجيئهم وتصرفهم ورأوا أن الخير بيده ومن عنده لم ينصرفوا إلا سألين غانمين كالطير تغدو خماصا وتروح بطانا لكنهم يعتمدون على قوتهم وجلدهم ويغشون ويكذبون ولا ينصحون وهذا خلاف التوكل .

وعن معاوية بن قره قال : لقي عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – إناسا من أهل اليمن . فقال : ما أنتم قالوا متوكلون . قال : كذبتم ما أنتم متوكلون إنما المتوكل رجل ألقى حبه فى الأرض وتوكل على الله . " وجاء فى الأسر : " إن الله يحب العبد المؤمن المحترف وفى الآية إيحاء إلى نذب التجارة ، والتكسب بجميع

ضروبه وألوانه وفيها تهديد للكافرين كأنه قال لهم : " إني عالم بسرکم وجهركم فاحترسوا من عقابي فهذه الأرض التي تمشون عليها ، وتضربون في مناكبها ، أنا الذي دللتها لكم ، وجعلتها سبباً لنفعمكم وإن شئت خسفتها بكم ، وأنزلت عليها ألوان من المحن والبلاء .

﴿وَالِيهِ الشُّورُ﴾ ، يعنى واليه المرجع والمصير يوم القيامة ، فَيَنْبَغَى أَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ مَكْتَكُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَأَكَلَكُمْ مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ فِيهَا ، مَكْتٌ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَرْجِعَهُ إِلَى اللَّهِ ، وَيَسْتَيْقِنُ أَنَّ مَصِيرَهُ إِلَيْهِ ، فَاحْذَرُوا الْكُفْرَ وَالْمَعَاصِيَ فِي السَّرِّ وَالْعَلَنِ .

ويقول الله - عز وجل - في نفس المعنى : ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ، بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [سورة الملك: ٢١] . والمعنى : بل من ذا الذي يرزقكم إن منع ربكم عنكم أسباب رزقه من الأمطار وغيرها ، أو وقف الهواء فلم تجر الرياح ، أو جعل ماء البحر غوراً ، فلا جند لكم ، ولا ناصر لكم ، ولا معين يعينكم إن هوعذبكم ولا رازق يرزقكم إن هو حرمكم أرزاقكم ، وبعد أن حصص الحق قال الله تعالى مبيناً عتوهم ، وطغيانهم فقال : ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ، بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [سورة الملك: ٢١] . فهم يعلمون ذلك حق العلم ، ويعرفونه حق المعرفة ، ومع ذلك يعبدون غيره ، فما هذا منهم إلا عناد ، واستكبار ، ونفور عن قبول الحق ، وما جرأهم على هذا إلا الشيطان الذي غرهم بوسوسته ، فظنوا أن آلهتهم تنفعهم ، وتدفع الضرر عنهم ، وتقربهم إلى ربهم زلفى . فالقرآن الكريم يوجه المسلمين ويرشدهم إلى أنه من الواجب ابتغاء الرزق من الله فلا رازق سواه ، ولا معبود غيره ،

هذا يجعل المسلم واثقاً في وعد ربه ، كما أن ذلك يريى فيه العزة والكرامة وأن يأخذ المال باستشراق نفس ، وشمم وآباء ، وبذلك يبارك الله له فيه ، ويحظى باحترام الناس في الدنيا ، وبالأجر الجزيل من الله في الآخرة . (١)

-
- 1 - تفسير ابن كثير ج ٢ ، ص ١٨٧ بتصرف .
- ❑ مختصر تفسير ابن كثير ج ٣ ، ص ١٢٦ بتصرف .
 - ❑ ذاته ص ١٣٩ .
 - ❑ ذاته ص ٣٧٢ .
 - ❑ ذاته ص ٣٨٧ .
 - ❑ ذاته ص ٥٠٢ .
 - ❑ زاد المسير لابن الجوزى ج ٣ ، ص ١٤٨ .
 - ❑ صفوة التفاسير ج ٢ ، ص ٩٨ .
 - ❑ ذاته ج ١ ، ص ٤٢٨ .
 - ❑ ذاته ص ٣٨٤ .
 - ❑ تفسير المراغى ج ٦ ، ص ١٦٧ .
 - ❑ ذاته ج ٨ ، ص ٥ وما بعدها .
 - ❑ ذاته ج ١٠ ، ص ١٥ .
 - ❑ ذاته ص ٢٠ وما بعدها .
 - ❑ لطائف الاشارات للقسيري ج ٣ ص ٢١٦ .
 - ❑ ذاته ص ٤٧٠ .
 - ❑ ذاته ٥٦٠ ، ذاته ج ١٧ ص ٥٦ .
 - ❑ تفسير القرطبي ج ١٨ ، ص ١٩ بتصرف .
 - ❑ تفسير البحر المحيط ج ٧ ، ص ٣٣٥ .
 - ❑ حاشية شيخ على البيضاوى ج ٣ ، ٨٥ .
 - ❑ الكشاف للزمخشري ج ٣ ، ص ٤٥٤ .
 - ❑ ذاته ص ٤٧١ .
 - ❑ النكت و العيون ج ٥ ، ص ٤٢٥ وما بعدها .

الإصلاح

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة " الإصلاح " حيث إن الإصلاح يعود بالخير على المسلمين ، وعلى الناس قاطبةً ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَافٍ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: ١٨٢]. والمعنى : فمن علم أو ظن من الموصى ميلاً عن الحق بالخطأ ، أو ميلاً عن الحق عمداً فأصلح بين الموصى ، والموصى له فلا ذنب عليه بهذا التبديل ، إن الله واسع المغفرة والرحمة لمن قصد بعمله الإصلاح .

وفى هذا المعنى يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٤]. والمعنى : ولا تجعلوا الحلف بالله سبباً مانعاً عن فعل الخير ، وأريد باليمين بأن يقول أحدكم : " قد حلف بالله ألا أفعله ، وأريد أن أبرِّيميني ، بل أفعلوا الخير وكفروا عن أيمانكم ، وقيل المعنى : " لا تتكثروا الحلف فتجعلوا الله هدفاً لأيمانكم تبتدلون اسمه الأعظم في كل شيء قليل أو كثير ، عظيم أو حقير إرادة أن تبروا ، وتتقوا ، وتصلحوا فإن الحلاف لا يكون براً ولا تقياً .

يقول ابن عباس - رضي الله عنهما - : " لا تجعلن الله عرضة يمينك أن لا تصنع الخير ، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير ، ولا تجعلوه تعالى سبباً مانعاً عن البر والتقوى والإصلاح بين الناس ، وقد نزلت هذه الآية في عبد الله بن رواحة حين حلف ألا خنته يعنى : صهره " النعمان بن بشير " - رضي الله عنهم - ولا يصلح بينه وبين أخته ، والله سميع لأقوالكم ، عليم بأحوالكم .

ومثلها قول الحق - عز وجل - : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [سورة النساء: ٣٥]. وقوله تعالى : ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [سورة النساء: ٨٥]. وأيضا قول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ آتِيغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿ [سورة النساء: ١١٤].
 وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ أُمَّرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاصًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ
 يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا
 فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ [سورة النساء: ١٢٨]. وأيضا قول الحق
 - سبحانه وتعالى ﴿ وَكُنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعُدُّوا بَيْنَ الْأَنْفُسِ وَالْوَحْشِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا
 تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
 غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ [سورة النساء: ١٢٩].

وفي المعنى ذاته يقول المولى - سبحانه وتعالى - : ﴿ يَبْنِي آدَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ
 رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾
 [سورة الأعراف: ٣٥]. والمعنى : يا بنى آدم إن يأتيكم رسل من أبناء جنسكم من
 البشر يتلون عليكم آياتي التي أنزل عليكم لبيان ما أمركم له من صالح الأعمال ،
 وترك ما نهاكم عنه من الشرك ، والرذائل ، وقبيح الأعمال ، فمن أتقى منكم ما
 نهيته ، وأصلح نفسه بفعل ما أوجبه عليه فلا خوف عليه من عذاب الآخرة ، ولا
 هم يحزنون حين الجزاء على ما فاتهم ، والحكمة في كون الرسل منهم ، أن ذلك
 يقطع أعدارهم ، ويبطل حجبتهم ، بل ذلك أظهر في الحجة عليهم حيث إن
 معرفتهم بأحوال نيتهم لهم ذلك أن المعجزات التي ظهرت على يديه إنما هي بقدرة
 الله .

وليس بقدرته هو إلى ما في ذلك من حصول الألفة ، فالجنس يألف
 الجنس ويركن إليه ، ومن ثم قال الله - سبحانه وتعالى - : " وَكُوِّجَعَلَنَّهُ مَلَكًَا
 لَجَعَلَنَّهُ رَجُلًا " . ومنها قوله تعالى : ﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا
 بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي
 وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٤﴾ [سورة الأعراف: ١٤٢]. ويقول الحق -
 سبحانه وتعالى - : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ
 وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ [سورة الأنفال: ١].
 والمعنى : يسألونك أيها النبي - صلى الله عليك وسلم - عن الأنفال لمن هي ؟ أهى

للشبان ؟ أم للشيوخ ؟ أم للمهاجرين ؟ أم للأنصار ؟ أن أنها لهم جميعا ؟ . فقل لهم - صلى الله عليك وسلم - إن الانفال لله يحكم فيها بحكمه ، ولرسول يقسمها بحسب حكم الله تعالى وقد قسمها - صلى الله عليه وسلم - بالسوية ، وبالعدل المطلق ، والذي لا يرتاب فيه أحد . وقد بيّن الله بهذا أن أمرها مفوض إلى الله ورسوله ، ثم بين مصارفها ، وكيفية قسمتها .

وفى قوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّنْفِيهِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة الأنفال: ٤١] . والمعنى : ولإمام أن ينفل من شاء للجيش ما شاء قبل التحميس ، وقد روى عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر، وقُتل أخي عُمَيْرٌ، وقَتَلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه، وكان يسمى " ذا الكتيفة " ، فَأَتَيْت به نبي الله صلى الله عليه وسلم، فقال: " اذهب فاطرحه في القَبَضِ " . قال : فرجعت وبني ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سيفي . قال: فما جاوزت إلا يسيرا حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اذهب فخذ سيفك " .

﴿ فَأَتَقُوا اللَّهَ ﴾ . يعنى : فاجتنبوا ما كنتم فيه من المشاجرة والتنازع ، والاختلاف الموجب لسخط الله لما فيه من المضار ولاسيما فى حال الحرب . وأصلحوا ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال أُلْفَة ومحبّة واتفاق ، وهذا الإصلاح واجب شرعا وعليه تتوقف قوة الأمة ، وعزتها ، وبه تحفظ وجدتها .

روى عن عبادة بن الصامت: نزلت فينا معاشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه بين المسلمين على السواء، وكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإصلاح ذات البين،

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إنه قال: لما كان يوم بدر وقتل أخي عُمَيْرٌ، وقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه، وأتيت به رسول الله صلى

اللَّهُ عليه وسلم واستوهبته منه فقال: هذا ليس لي ولا لك اطرحه في القَبْضِ، وهو بفتحتين: ما قبض من الغنائم فطرحته، وبني ما لا يعلمه إلا الله تعالى من قتل أخي وأخذ سيفي، فما جاوزت إلا قليلاً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم «سألتني السيف وليس لي وإنه قد صار لي اذهب فخذ» وقيل: إنها نزلت فيما يصل من المشركين إلى المسلمين بغير قتال من عبد أو أمة أو متاع، فهو للذي صلى الله عليه وسلم يصنع فيه ما يشاء.

وأطيعوا الله ورسوله في كل ما يأمر به أو نهياً عنه، ويُقضى به، ويحكم فيه، فالله تعالى مالك أمركم والرسول مُبَلِّغُ عنه، ومبين نواهيهِ بالقول والفعل والحكم. وعلى هذه الطاعة تتوقف النجاة في الآخرة، والفوز بثوابها، والرسول - صلى الله عليه وسلم - يطاع في اجتهاده أمر الدنيا المتعلقة بالمصالح العامة، ولا سيما في الشئون الحربية لأنه القائد العام للقوات المسلحة الإسلامية فمخالفته تخل بالنظام، وتؤدي إلى الفوضى التي لا تقوم للأمة معها قائمة، وللأئمة المسلمين من حق الطاعة في تنفيذ الشرع، وأدارة شئون الأمة، وقيادة الجند ما كان له - صلى الله عليه وسلم - بشرط عدم معصية الله تعالى، ومشاورة أولى الأمر، ثم بينه الله - سبحانه وتعالى - للمؤمنين فيقول لهم. هذه التوجيهات الراشدة، والأخلاق القرآنية الكريمة يجب عليكم أن تنفذوها إن كنتم مؤمنين كاملين الإيمان. فإن كنتم كاملين الإيمان فامتثلوا هذه الأوامر الثلاثة، إذ كما له يقتضى ذلك لأن الله أوجبه، فالمؤمن بالله حقاً يكون له من نفسه وازع يسوقه إلى الطاعة واتقاء المعاصي إلا أن يعرض له ما يغلبه عليه أحياناً من ثورة شهوة أو ثورة غضب، ثم لا يلبث أن يفيء إلى أمر الله، ويتوب إليه مما عرض له.

ويقول الله تعالى أيضاً: ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِّنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَنكُم عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [سورة هود: ٨٨]. والمعنى: إن المراد بالظلم هو الشرك أي أنه تعالى ليس من سنته أن يهلك القرى بشرك أهلها ما داموا مصلحين في أعمالهم الاجتماعية والعمرانية، والمدنية فلا

للإيمان الذي يوجب السعادة الأبدية، وفي الحديث: "عن أبوهريرة - رضي الله عنه - : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- قال: « إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ ، وَلَا تَحَسَّسُوا ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا تَنَافَسُوا ، وَلَا تَحَاسَدُوا ، وَلَا تَبَاغَضُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا كَمَا أَمَرَكُمْ ، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لَا يَظْلِمُهُ ، وَلَا يَخْذُلُهُ ، وَلَا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَاهُنَا ، التَّقْوَى هَاهُنَا - ويشير إلى صدره - بِحَسَبِ امْرَأٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ ، كُلُّ الْمُسْلِمٍ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ : دَمُهُ ، وَعَرِضُهُ ، وَمَالُهُ. إِنْ اللَّهُ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ ، وَلَا إِلَى صُورِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ ».

وفي الصحيح أيضاً: " إذا دَعَى الْمُسْلِمُ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ : " قال الملك : " أمين ولك بمثله ، ولما كانت الأخوة داعية إلى الإصلاح ، ولا يَدَّ تَسْبِيبٍ عَنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿ فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ ﴾ في الدين كما تصلحون بين أخويكم في النسب . واتقوا الله في كل ما تآتون وما تدرن ، ومن ذلك ما أمرتم به من إصلاح ذات البين ، رجاء أن يرحمكم ربكم ، ويصفح عن سالف إجرامكم إذا انتم أطعتموه ، واتبعتم أمره ونهيه .

يقول صاحب اللطائف : " إيقاعُ الصلح بين المتخاصمين مِنْ أَوْكَدِ عِزَائِمِ الدِّينِ . وإذا كان ذلك واجباً فإنه يدل على عِظَمِ وَزْرِ الْوَأَشْيِ وَالنَّمَامِ ؛ وَالْمُصَدَّرِ فِي إِفْسَادِ ذَاتِ الْبَيْنِ . (ويقال إنما يتم ذلك بتسوية القلب مع الله فإن الله إذا علم صدق همة عبد في إصلاح ذات البين) فإنه يرفع عنهم تلك العصبية .

فأما شرط الأخوة : فمن حق الأخوة في الدين ألا تحوج أخاك إلى الاستعانة بك أو التماس النصرة عنك ، وألا تقصر في تفقد أحواله بحيث يشكل عليك موضع حاجته فيحتاج إلى مساعلتك . ومن حقه ألا تلجئه إلى الاعتذار لك بل تبسط عُذْرَهُ ؛ فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ وَجَّهَهُ عُدَّتْ بِاللَّائِمَةِ عَلَى نَفْسِكَ فِي خِفَاءِ عُذْرِهِ عَلَيْكَ وَمِنْ حَقِّهِ أَنْ تَتُوبَ عَنْهُ إِذَا أَذْنَبَ ، وَتَعُوذَهُ إِذَا مَرَضَ . وإذا أشار عليك بشيء فلا تطالبه بالدليل عليه وإبراز الحجة - كما قالوا :

إِذَا اسْتَنْجِدُوا لَمْ يَسْأَلُوا مَنْ دَعَاهُمْ لِأَيَّةِ حَرْبٍ أَمْ لِأَيِّ مَكَانٍ

ومن حَقِّه أَنْ تُحَفَظَ عَهْدَه الْقَدِيمَ ، وَأَنْ تُرَاعِيَ حَقِّه فِي أَهْلِهِ الْمُتَصِلِينَ بِهِ فِي
المشهد المغيب ، وفي حال الحياة وبعد الممات - كما قيل :

وخليل إن لم يكن من صفاً كُنْتُ من صفا
تتحمسى له الأمر يُن وكُن ملاطفا
إن يُقل لك استواحترف ت رضاً لا تكلفاً (١)

1- صفوة التفسير ج ١ ، ص ١١٩ .

- ذاته ص ١٤٢ ، ذاته ج ٢ ، ص ٤٤٧ و ما بعدها بتصرف .
- تفسير المراغي ج ٣ ، ص ١٤٤ بتصرف .
- ذاته ص ١٦٢ و ما بعدها .
- ذاته ج ٤ ، ص ٩٧ و ما بعدها .
- المراغي ج ٩ ص ١٣١ و ما بعدها .
- لطائف الاشارات للقسيري ج ٣ ، ص ٤٤١ و ما بعدها .

الإحسان للوالدين

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة التى يوجهنا إليها ربنا - عز وجل - الإحسان إلى الوالدين ، والترفق بهما طوال حياتنا قال تعالى : ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِى صَغِيرًا ﴾ [سورة الإسراء: ٢٤]. والإحسان للوالدين إليهما بعد الممات ، فقد سأل اعرابى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قائلاً : لى أبوان كنت اكرمهما حال حياتهما ، وهما قد ماتا ألهمأ عليّ طاعة بعد الموت ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : نعم ، قال : ما هى . قال - صلى الله عليه وسلم - : الدعاء لهما ، والاسْتغْفار لهما ، والتصدق باسمهما ، وصلة من كان يصلان أثناء الحياة .

وفى هذا المعنى يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٨٣]. والمعنى : الذى تتغياه من الآية هو الإحسان للوالدين ، وذلك فى قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ . أى : وأمرناهم بأن يحسنوا إلى الوالدين إحسانا ، وذلك حين أخذ الله الميثاق على بنى إسرائيل أى على أسلافهم فى العهد المؤكد بالأل يعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا ،

ومثلها قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [سورة النساء: ٣٦]. والمعنى : واعبدوا الله ووحده وعظموه ، ولا تشركوا به أحد ولا شيئاً من الأشياء صنماً أو غيره ، واستوصوا بالوالدين براءً ، وإنعاماً ، وإحساناً ، وإكراماً .

فروي أن شيخاً أتى النبي عليه الصلاة والسلام فقال : إن ابني هذا له مالٌ كثير وإنه لا ينفق عليَّ من ماله ، فنزل جبريلُ عليه السلام وقال : إن هذا الشيخ قد أنشأ في ابنه أبياتاً ما قرعُ سمعُ بمثلهما فاستنشدَها الشيخُ فقال :

غَدُوْتُكَ مَوْلُوداً وَمُنْتُكَ يَافِعَا تَعَلُّ بِمَا أَجْنِي عَلَيْكَ وَتَهْمَلُ
 إِذَا لَيْلَةٌ ضَافَتُكَ بِالسُّقْمِ لَمْ أَبْتَ لَسُقْمِكَ إِلَّا بِأَكْيَافاً أَتَمْلَمَلُ
 كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي طُرِقْتُ بِهِ دُونِي وَعَيْنِي تَهْمَلُ
 فَلَمَّا بَلَغْتَ السَّنَّ وَالغَايَةَ الَّتِي إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتُ فِيكَ أَوْمَلُ
 جَعَلْتَ جَزَائِي غَلْظَةً وَفِظَاطَةً كَأَنَّكَ أَنْتَ الْمَنْعُمُ الْمَتَفَضَّلُ
 فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَرَعْ حَقَّ أَبُوتِي فَعَلْتَ كَمَا الْجَارُ الْمُجَاوِرُ يَفْعَلُ

فغضب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقال : « أنتَ ومالكَ لأبيك . . .

أجل : إنه لا نعمه تصل الإنسان أكثر من نعمة الخالق عليه ، ثم نعمة الوالدين ومن ثم بدأ بشكر نعمته أولاً فقال : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . ثُمَّ افردها بشكر نعمة الوالدين بقوله - سبحانه وتعالى - : " وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا " .

ويقول الله - سبحانه وتعالى - في نفس المعنى : ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا كَانَتْ لَهُمَا رُكُوعًا وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُمْ عَنِ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿ [سورة الكهف: ٨١: ٨٢]

والمعنى : قال هذا العالم : أردنا أن يرزق الله هذين الأبوين ولداً صالحاً يكون خيراً من هذا الولد ديناً وصلاً ، وأقرب عطفاً ورحمةً وبراً بأبويه ، وشفقةً عليهما ، وإن الداعي إلى إقامة الجدار أنه كان تحته كنز ، وكان ليتيمين في المدينة ، وكان أبوهما أمراً صالحاً ، فأراد الله إبقاء ذلك الكنز على ذينك اليتيمين رعايةً لحقهما ، ولصالح أبيهما ، فأمرني بإقامة الجدار لذلك الأمر ، إذ لو سقط الجدار

لضاع الكنز، وقد كان مشرفاً على السقوط ، وما فعلت الذي رأيتني فعلت أفعله عن رأيي ، ومن تلقاء نفسي ، بل فعلته عن أمر الله اياي به ، لأن الإقدام على تنقيص أموال الناس وإراقة دمائهم لا تجوز إلا بالوحي والنص القاطع ، وهذا الذي ذكرت لك من الأسباب التي من أجلها فعلت الأفعال التي استنكرتها ، وهو بيان ما تؤول إليه الأفعال التي ضقت بها ذرعاً ، ولم تصبر حتى أخبرك بها ابتداءً .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ [سورة مريم: ١٤]. والمعنى : أي كان كثير البر بهما والإحسان اليهما والحدب عليهما بعيدا عن عقوقهما قولاً وفعلاً ، وقد جعل الله طاعة الوالدين في المرتبة التي تلي مرتبة طاعته فقال : " ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ . ولم يكن جباراً ولا متكبراً على الناس ولا مخالفاً لما أمره به ربه .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدِيَّ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٣٢]. والمعنى وجعلني ربي - سبحانه وتعالى - { وَبَرًّا بِوَالِدِيَّ } ، مطيعاً لها محسناً ، وفي هذا رمز إلى نفي الريبة عنهما ، إذ لو يكن الأمر كذلك لما أمر الرسول المعصوم بتعظيمهما ، ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته ، ولا شقياً بعقوق والدتي وعدم برها .

ومثل الآيات آنفة الذكر قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة العنكبوت: ٨]. والمعنى : أمرناه أمراً مؤكداً بالإحسان إلى والديه غاية الإحسان لأنهما سبب وجوده ولهما عليه غاية الفضل والإحسان ، الوالد بالإنفاق ، والوالدة بالإشفاق . يقول الصاوي : " وإنما أمر الله الأولاد ببر الوالدين دون العكس ، لأن الأولاد جبلوا على القسوة ، وعدم طاعة الوالدين ، فكلفهم الله بما يخالف طبيعتهم ، والآباء مجبولون على الرحمة والشفقة بالأولاد فوكلمهم لما جبلوا عليه .

والذكاء واللفطنة وقوة الرأي ولو في الصبا كعيسى ويحيى عليهما السلام إلى آخر ما قال . وقيل أنه دعا قائلاً : رب وفقني لشكر نعمتك التي غمرتني بها في ديني ودنياي، بما أمتع به من سعة في العيش ، وصحة في البدن ، وأمن مودة للإخلاص لك ، وإتباع أوامرك ، وترك نواهيك ، وأنعمت بها على والدي من الحنان علي حين ربياني صغيراً ، واجعل عملي وفق رضاك ، لأنال مثوبتك وأجعل الصلاح سارياً في ذريتي ، متمكناً من نفوسهم ، راسخاً في قلوبهم .

يقول ابن عباس - رضي الله عنهما - : " أجاب الله دعاء أبي بكر - رضي الله عنه - فأعتق تسعة من المؤمنين منهم بلال ، وعامر بن فهيرة " . ولم يرد شيئاً من الخير إلا أعانه عليه ، ودعا فقال : " أصلح لي في ذريتي " . فأجابه الله - سبحانه وتعالى - ، فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعاً ، فأجتمع له إسلام أبويه وأولاده جميعاً ، وقد أدرك أبوه وولده عبد الرحمن وولده أبو عتيق النبي - صلى الله عليه وسلم - وآمنوا به ، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين - ، وأنى تبت إليك من ذنوبي التي فرطت مني في أيامي الخوالي ، وأنى من الخاضعين لك بالطاعة ، المستسلمين لأمرك ونهيك ، المنقادين لحكمك . هذا هو الخلق القرآني الكريم والسنة المطهرة .^(١)

1- صفوة التفاسير ج ١ ، ص ٧٤ .

□ ذاته ص ٢٧٥ .

□ تفسير أبو السعود ج ٢ ، ص ١٤٦ .

□ تفسير المراغي ج ٥ ، ص ٣٣ - ٣٤ .

□ ذاته ج ٦ ص ٨ - ٩ ، ص ٤٨ - ٤٩ .

□ ذاته ج ٩ ، ص ١٧ - ٢٠ .

□ حاشية الصاوي على الجلالين ج ٣ ، ص ٢٣١ .

□ التسهيل في علوم التنزيل لابن جزى ج ٣ ، ص ١٢٦ .

الإحسان للأقارب

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة الإحسان للأقارب لأنهم أولى بالمعروف والإحسان ، والإكرام ، والمساعدة ، ومديد العون إليهم ، والأخذ بأيديهم إلى طرائق النجاة ، فإنه إحسان ، وصلة للقربى وتقوية ما بينهم من وشائج وامتساج . يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَفُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٨٣]. والمعنى : اذكروا يا معشر اليهود العهد المؤكد غاية التأكيد بأن لا تعبدوا غير الله ، وأمرناهم بأن يحسنوا إلى الوالدين إحساناً ، وأن يحسنوا أيضاً إلى الأقرباء لأنهم أولى من غيرهم بالحنو، والعطف ، والصلة ، والشفقة ، والرحمة .

يقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ [سورة النساء: ٨]. وقوله تعالى : ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْعًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [سورة النساء: ٣٦]. والمعنى : وإذا حضر قسمة التركة الفقراء من قرابة الميت من غير الوارثين فأعطوهم شيئاً من هذه التركة تطيبياً لخاطرهم ، واقتلاعاً لما فى أنفسهم من حقد أو حسد ، أو غل أو كراهية ومع ذلك العطاء قولوا لهم قولاً معروفاً حسناً طيباً فالكلمة الطيبة صدقة وثواب .

ويقول المراغى فى تفسيره : " والمراد بذوى القربى من لا يرث منهم مثل : الأخ لأب ، مع الأخ الشقيق ، والعم مع الأب . يعنى إذا حضر قسمة التركة أحد من ذوى القربى للوارثين فانفعوهم بشيء من الرزق الذى جاءكم من غير كد ولا نصيب ، فلا ينبغي أن يخلوا به على المحتاجين من ذوى القربى واليتامى والمساكين ، وتركوهم يذهبون منكسرى القلب ، مضطربى النفس وقولوا لهم قولاً طيباً به نفسهم عندما يعطون حتى لا ينقل على أبى النفس منهم ما يأخذ ، ويرضى الطامع

في أكثر مما أخذ بما أخذ بالتودد والتلطف في القول ، وعدم التعليل فيه . والسر في إعطائهم شيئاً من التركة أنه ربما يسرى الحسد إلى نفوسهم ، فينبغي التودد إليهم ، واستمالتهم وذلك بإعطائهم قدراً من هذا المال هبةً أو هديةً أو إعداد طعام لهم يوم القسمة ، ليكون في هذا صلةً للرحم وشكرًا للنعمة .

يقول " سعيد بن جبير " : وهذا الأمر هو أمر إعطاء ذوى القربى للوجوب ، وقد هجره الناس كما هجروا العمل بالاستئذان عند دخول البيوت . ويقول الحسن والنخعي : " إن ما أمرنا أن نرزقهم منه عند القسمة هو الأعيان المنقولة وأما الأرضون ، والرفيق وما أشبه ذلك فلا يجب أن يعطوا منها شيئاً بل يكتفى حينئذ بقول المعروف ، أو بإطعام الطعام .

قوله تعالى : ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [سورة النساء: ٣٦] . فإذا أدى المسلم حقوق الله صحت بذلك عقيدته وصلحت أعماله ، وإذا قام بحقوق الوالدين صلح البيت ، وحسن حال الأسرة وصارت قوة في المجتمع المسلم ، فإذا ما عاود القربى الذين ينسبون إليه كان لكل منهم قوة أخرى تتعاون مع هذه الأسرة ، وبذلك تتعاون الأمة جمعاء ، وتمد يد العون لمن هو في حاجة إلى مساعدة ممن ذكروا بعد ذلك من اليتامى والمساكين ، ومثلها قول الله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۚ إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة الأنفال: ٤١] . يقول الخازن : { وَلِذِي الْقُرْبَىٰ } يعني أن سهماً من خمس الخمس لذوي القربى وهم أقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم واختلفوا فيهم فقال قوم هم جميع قريش وقال قوم هم الذين لا تحل لهم الصدقة وقال مجاهد وعلي بن الحسين : هم بنو هاشم . وقال الشافعي رحمه الله تعالى : هم بنو هاشم وبنو المطلب وليس لبني عبد شمس ولا لبني نوفل منه شيء وإن كانوا إخوة

ويدل عليه ما روي عن جبير بن مطعم « قال جئت أنا وعثمان بن عفان إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أعطيت بني المطلب وتركنا ونحن وهم بمنزلة واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد

« وفي رواية : « أعطيت بني المطلب من خمس الخمس وتركنا » وفي رواية قال جبير : ولم يقسم النبي صلى الله عليه وسلم لبني عبد شمس ولا لبني نوفل شيئاً أخرجه البخاري وفي رواية أبي داود « أن جبير بن مطعم جاء هو وعثمان بن عفان يكلمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يقسم من الخمس في بني هاشم وبني المطلب فقلت يا رسول الله قسمت لإخواننا بني المطلب ولم تعطنا شيئاً وقرابتنا وقرابتهم واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد

« وفي رواية النسائي قال لما كان يوم خيبر رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم سهم ذوي القربى في بني هاشم وبني المطلب وترك بني نوفل وبني عبد شمس فانطلقت أنا وعثمان بن عفان حتى أتينا النبي صلى الله عليه وسلم فقلنا : يا رسول الله هؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم للموضع الذي وضعك الله به منهم فما بال إخواننا بني المطلب أعطيتهم وتركنا وقرابتنا واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا وبنو المطلب لا نفترق في جاهلية ولا إسلام وإنما نحن وهم شيء واحد وشبك بين أصابعه واختلف أهل العلم في سهم ذوي القربى هل هو ثابت اليوم أم لا فذهب أكثرهم إلى أنه ثابت فيعطى فقراؤهم وأغنيائهم من خمس الخمس للذكر مثل حظ الأنثيين وهو قول مالك والشافعي وذهب أبو حنيفة وأصحاب الرأي إلى أنه غير ثابت قالوا سهم النبي صلى الله عليه وسلم وسهم ذوي القربى مردود في الخمس فيقسم خمس الغنيمة على ثلاث أصناف اليتامى والمساكين وابن السبيل فيصرف إلى فقراء ذوي القربى مع هذه الأصناف دون أغنيائهم وحجة الجمهور أن الكتاب والسنة يدلان على ثبوت سهم ذوي القربى وكذا الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يعطون ذوي القربى ولا يفضلون فقيراً على غني ، لأن

الذي صلى الله عليه وسلم أعطى العباس بن عبد المطلب مع كثرة ماله وكذا الخلفاء بعده كانوا يعطونه وألحقه الشافعي بالميراث الذي يستحق باسم القرابة غير أنهم يعطون القريب والبعيد قال ويفضل الذَّكَرَ على الأنثى فيعطى الذكر سهمين والأنثى سهماً .

ويقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة النحل: ٩٠]. والمعنى : وإيتاء ذي القربى ويأمر بصلة الرحم ، وهم القرابة الأذنون ، والأبعدون منك فيستحب أن تصلهم من فضل ما رزقك الله ، فإن لم يكن لك فضل فدعاء حسن وتوود .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - فى نفس المعنى : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [سورة الإسراء: ٢٦]. والمعنى : قيل إن الخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - فإن الله أمره أن يؤتى أقاربه حقوقهم من صلة الرحم ، والمودة ، والزيارة ، وحسن المعاشرة ، والمؤالفة علة السراء ، والضراء ، والمعاضدة . وقيل : أعط كل من له قرابة بك حقه من البر والإحسان . ومثلها قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأَوْلَىٰكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الروم: ٣٨]. والمعنى : وأعط القريب حقه من البر والصلة والإحسان ، والشفقة ، والرحمة ، والعطف والزيارة .

ويقول صاحب اللطائف : " القرابةُ على قسمين : قرابةُ النسب وقرابةُ الدين ، وقرابةُ الدين أَمْسُ ، وبالمواساة أحنُّ وإذا كان الرجلُ مشتغلاً بالعبادة ، غير متفرغٍ لطلب المعيشة فالذين لهم إيمانٌ بحاله ، وإشرافٌ على وقته يجب عليهم القيام بشأنه بقدر ما يمكنهم ، مما يكون له عونٌ على الطاعة و فراغ القلب من كل علة؛ فاشتغال الرجل بمراعاة القلب يجعل حقه أكد ، وتفقده أوجب .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ { المريدُ هو الذى يُؤْتِرُ حَقَّ الله على حظِّ نفسه؛ فإيتاءُ المريد وجه الله أنمُّ من مراعاته حال نفسه ، فهمته في

الإحسان إلى ذوي القربى والمساكين تتقدم على تظّره لنفسه وعياله وما يهمله من خاصته .

ومثلها قوله- سبحانه وتعالى-: ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة الطور: ٢٦]. يقول ابن كثير- رحمه الله تعالى - : ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة الطور: ٢٦] أي: قد كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه، ﴿ فَمَرَّبَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّاتَنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الطور: ٢٧] أي: فتصدق علينا وأجرنا مما نخاف. وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان، فيجيء سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا، فيتحدثان، فيتكى هذا ويتكى هذا، فيتحدثان بما كان في الدنيا، فيقول أحدهما لصاحبه: يا فلان، تدري أي يوم غفر الله لنا؟ يوم كنا في موضع كذا وكذا، فدعونا الله - عز وجل - فغفر لنا".

وفى المعنى ذاته قال تعالى: ﴿ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَنْ لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة الحشر: ٧]. والمعنى: ما جعله الله غنيمة لرسوله بدون قتال من أموال الكفار يقول ابن عباس - رضي الله عنهما - : " قال ابن عباس هي قريظة والنضير وفدك وخيبر وقرى عريضة { فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ } يعني بني هاشم وبني المطلب { وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ } قد تقدم تفسيره في سورة الأنفال في حكم الغنيمة وقسمتها وأما حكم الفياء فإنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم مدة حياته يضعه حيث يشاء فكان ينفق على أهله منه نفقة سنتهم ويجعل ما بقي جعل مال الله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله . واختلف العلماء في مصرف الفياء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قوم هولاءئمة بعده وللشافعي فيه قولان أحدهما أنه للمقاتلة والثاني هولصالح المسلمين ويبدأ بالمقاتلة ثم بالأهم فالأهم من المصالح .

الإحسان لليتامى

ومن الأخلاق القرآنية ، والسنة النبوية المطهرة الإحسان لليتامى حيث إن اليتيم الذى فقد أبواه ، أو إحدى أبويه فى مسيس الحاجة إلى العطف ، والرعاية لتعويضه الحنان الذى افتقده بفقده لأبويه أو أحد أبويه ، الأب أو الأم . يقول - صلى الله عليه وسلم - أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة وأشار بالسبابة والإبهام . " والذى يمسح على رأس يتيم يكون له بعدد شعره حسنات . هكذا يوجهنا القرآن الكريم ، وأيضا النبوة الزاكية المطهرة .

يقول الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَهْزِرْهُ ﴾ [سورة الضحى : ٩] . ويقول الله تعالى فى الإحسان لليتامى : ﴿ وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وِبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذَى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٨٣] .

والمعنى : وأن يحسنوا إلى الأقرباء ، وقولوا لهم قولاً حسناً وذلك بخفض الجناح والكلمة الطيبة ، ومع لين الجانب وكذلك اليتامى الذين آباؤهم وهم صغار ، فأحسنوا إليهم بالرعاية والعطف والرحمة والشفقة لأنهم فى مسيس الحاجة إلى ذلك لتعويضهم هذا اليتيم وذلك الحرمان ، ويسألونك يا محمد - صلى الله عليه وسلم - عن مخالطة اليتامى فى أموالهم أن يخالطونهم أم يعتزلوهم ؟ فقل لهم : " مداخلتهم على وجه الإصلاح خير من اعتزالهم ، وإذا خلطتم أموالهم بأموالكم على وجه المصلحة لهم فهم إخوانكم فى الدين ، وأخوة الدين أقوى من أخوة النسب ، ومن حقوق هذه الأخوة المخالطة بالإصلاح والنفع ، والله - سبحانه وتعالى - أعلم وأدرى بمن يقصد بمخالطتهم الخيانة والإفساد لأموالهم ، ويعلم كذلك من يقصد لهم الإصلاح فيجازى كلا بعمله ولو شاء الله لأوقعكم فى الحرج والمشقة ، وشدد عليكم ، ولكنه يسر عليكم الدين ، وسهله رحمةً بكم ، وهو تعالى الغالب الذى لا يمتنع عليه شيء ، الحكيم فيما يشرع لعباده من الأحكام .

ومثلها قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْأَطْيَبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ٢﴾ [سورة النساء: ٢]. وقوله تعالى : ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ٦﴾ [سورة النساء: ٦]. وأيضا قوله تعالى : ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ٨﴾ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضَعِيفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ١٠﴾ [سورة النساء: ٨: ١٠]

والمعنى : يقول مقاتل : " وابن حيان : " نزلت في رجل من غطفان يقال له مرثد بن زيد ولي مال يتيم وكان اليتيم ابن أخيه فأكله فأنزل الله هذه الآية { إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا } يعني حراماً بغير حق { إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا } يعني سيأكلون يوم القيامة فسمي الذين يأكلون ناراً بما يؤول إليه أمرهم يوم القيامة .

قال السدِّيُّ يبعث أكل مال اليتيم ظلماً يوم القيامة ولهيب النار يخرج من فيه ومن مسامعه وأذنيه وعينه وأنفه يعرفه من رآه يأكل مال اليتيم . وفي حديث أبي سعيد الخدري قال : حدثني النبي صلى الله عليه وسلم عن ليلة أسري به قال : " نظرت فإذا أنا بقوم لهم مشافر كمشافر الإبل وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يجعل في أفواههم صخراً من نار يخرج من أسافلهم قلت يا جبريل من هؤلاء قال : هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً .

وقيل إنما ذكر أكل النار على سبيل التمثيل والتوسع في الكلام والمراد أن أكل مال اليتيم ظلماً يفرض به إلى النار وإنما خص الأكل بالذكر وإن كان المراد سائر أنواع الإتلافات وجميع التصرفات الرديئة المتلفة للمال لأن الضرر يحصل لكل ذلك لليتيم . فعبر عن جميع ذلك بالأكل لأنه معظم المقصود وإنما ذكر البطون

للتأكيد فهو كقولك رأيت بعيني وسمعت بأذني { وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا } يعني بأكلهم أموال اليتامى ظلماً والسعير النار الموقدة المسعرة . ولما نزلت هذه الآية ثقل ذلك على الناس واحترزوا من مخالطة اليتامى وأموالهم بالكلية فشق ذلك على اليتامى فنزل قوله تعالى : { وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ } وقد توهم بعضهم أن قوله وإن تخالطوهم ناسخ لهذه الآية وهذا غلط ممن توهمه لأن هذه الآية واردة في المنع من أكل أموال اليتامى ظلماً وهذا لا يصير منسوخاً لأن أكل مال اليتيم بغير حق من أعظم الآثام وقوله : وإن تخالطوهم فإخوانكم وارد على سبيل الإصلاح في أموال اليتامى والإحسان إليهم وهو من أعظم القرب .

ومثلها قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [سورة النساء: ٣٦]. ففي هذه الآية الكريمة يوصى الله بالإحسان إلى اليتامى بعد عبادة الله وعدم الشرك به والإحسان إلى الوالدين ، وإلى الأقرباء وبنى القربى يعنى : وأحسنوا إلى اليتامى ، وانما أمرهم بالإحسان إليهم لأن اليتيم مخصوص بنوعين من العجز وهما الصغر ، وعدم المشفق ، فكان بذلك محتاجاً إلى الإحسان ، والترفق به ، والرحمة ، والعطف ، والرعاية ، ولتعويض الجرعة التى افتقدها من الحنان باليتيم .

ومثلها قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَسَيَسْأَلُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتْلَىٰ النِّسَاءَ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوَالِدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾ [سورة النساء: ١٢٧]. والمعنى : يفتينكم فى النساء اليتامى ، وقيل فى اليتامى أولاد النساء ونحن نفيل إلى هذا الرأى حيث إن اليتيم للرجل فى اللغة معناه عدم الزواج أو من ليست له امرأة ولا زوج .، المرأة اليتيمة هى التى لا زوج لها . فقد بيّن اليتيم هنا عدم اقترانها برجل يحصنها ويعفها . فالمراد باليتامى هنا " أولاد النساء " لأنهم حرّموا عطف

الأمهات . ويقول علماء النفس : " إن الطفل إذا نام على صدر أمه فإنه بذلك يأخذ جرعة من الحنان وهو نائم يغط في نومه - سبحانه وتعالى - الحنان المنان . فإذا كان الطفل يأخذ جرعة الحنان وهو نائم على صدر أمه ، أوفى حزن أبيه ، فما بالك بفقد الأب أو الأم وحرمانه البتة مما اعتاده من أبيه من الحنان والرفق والعطف والحنو؟ . وقوله تعالى : " وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَمَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا " . أي بالعدل وذلك في مهورهن ، ومواريتهن ، وما تفعلوا من خير فإن الله سيجازيكم عليه . نعم إنه القرآن الكريم .

ومثلها في المعنى أيضا قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّوْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٥٢] . والمعنى : ولا تقربوا مال اليتيم بوجه من الوجوه الا بالخصلة التي هي أنفع له حتى يصير بالغاً شديداً . والنهي عن القرب في الآية يعم وجوه التصرف لأنه إذا أنهى عن أن يقرب المال فالنهي عن أكله أولى وأحرص ، والتي هي أحسن " منفعة اليتيم " . وتثمير ماله . قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : " هو أن له عملاً مصلحاً فيأكل منه بالمعروف " .

يقول صاحب اللطائف : " ثم مجانية مال اليتيم والنظر إليه بعين التكريم . ويقول ابن كثير : " عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : " عن ابن عباس قال : لما نزلت الآية : { وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } { وَإِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتِيمِ ظُلْمًا إِنَّهَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا } انطلق من كان عنده يتييم فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتِيمِ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا عَنْهُمْ فَأَخْوَنُكُمْ } فخلطوا طعامهم بشاربهم بشاربهم . وقوله : { حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ } قال الشعبي، ومالك، وغير واحد من السلف: يعني: حتى

يحتلم . وقال السُّدِّيُّ: حتى يبلغ ثلاثين سنة، وقيل: أربعون سنة، وقيل: ستون سنة. والرأى الأول أرجح في رأينا وهو ثلاثون سنة لأن بلوغه سن الأربعين يكون قد كمل نضجه واستوى عوده . وقوى جسمه وبلغ رشده ، حيث إن الله – سبحانه وتعالى – بعث الأنبياء عند البلوغ الواحد منهم أربعين . فدل ذلك على أن سن الأربعين هو كمال النضج العقلي .

ويقول – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفَقُّ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة الأنفال: ٤١] . والمعنى : اعلموا أيها المؤمنون أن ما غنمتموه من أموال المشركين في الحرب قليلا كان أو كثيرا فإن لله خمسه .

يقول الحسن : قال تعالى { فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ } فإن لله خمسه ، قال : هذا مفتاح الكلام ، لله الدنيا والآخرة؛ ثم قال : وقد اختلف بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم في سهم الرسول وسهم ذوي القربى ، فقال بعضهم : للخليفة ، وقال بعضهم : لقرابة الخليفة ، فاجتمعوا على أن جعلوا هذين السهمين في الكراع والعدة في سبيل الله تعالى ، فكانا كذلك في خلافة أبي بكر وعمر .

وعن ابن عباس قال : كان الخمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم على خمسة أسهم : سهم الله ورسوله واحد ، ولذوي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل؛ وقسم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ على ثلاثة أسهم لليتامى والمساكين وابن السبيل . وبهذا أخذ أبوحنيفة رضي الله عنه وأصحابه أن الخمس يقسم على ثلاثة أسهم ، ولا يكون لأغنياء ذوي القربى شيء ، ويكون لفقرائهم فيه نصيب ، كما يكون لسائر الفقراء ، وكذلك يُتأمامهم وابن السبيل منهم ، وذلك قوله تعالى : { فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ } .

وللشافعي فيه قولان أحدهما أنه للمقاتلة والثاني هو لمصالح المسلمين ويبدأ بالمقاتلة ثم بالأهم فالأهم من المصالح .

ومثلها قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِنًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۗ ﴾ [سورة الإنسان: ٨]. ويطعمون الطعام على حبهم له ، وشهوتهم له فقيرا لا يملك من حطام الدنيا شيئاً ، ثم يتيماً وهو الذي مات أبوه ، وهو صغير . فعدم الناصر والكفيل فهو في ميسر الحاجة إلى الرعاية والكفالة والشفقة والرحمة ، وسد حاجته والثالث هو الأسير وهو: من أُسِرَ في الحرب من المشركين .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۙ ﴾ [سورة الضحى: ٩]. والمعنى : فأما اليتيم فلا تحقره ، ولا تغلبه بتضييع ماله . والمراد : " كن لليتيم كالأب الرحيم ، فقد كنت يتيماً فأواك الله . ويقول المراعى في تفسيره : " فأما اليتيم فلا تقهر أي لا تقهر اليتيم ، ولا تستذله ، بل ارفع نفسه بالأدب ، وهذبه بمكارم الأخلاق ، ليكون عضواً نافعاً في جماعتك ، لا جرثومة فساد يتعدى أذاها إلى كل من يخالطها من أمتك ، ومن ذاق مرارة الضيق في نفسه ، فما أجدره أن يستشعرها في غيره وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتيماً ، فباعد الله عنه ذل اليتيم فأواه ، فمن أولى منه بأن يكرم كل يتيم شكراً لله على نعمته .

هذه أخلاق القرآن الكريم التي تحثنا وترشدنا إلى إكرام الأيتام والعطف عليهم وحبهم ، والحدب عليهم ، ورعاية مصالحهم حتى يشبوا عن الطوق ، ويكون في وسعهم تولى مصالحهم بأنفسهم ، ولا يأتى لهم ذلك إلا برعايتهم وبلوغ رشدهم واستقامة عودهم وفتح أذهانهم ، ومعرفتهم بدروب الحياة . نعم إنه القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۙ ﴾ [سورة الضحى: ٩: ١١] فَحَدِّثْ ۙ ﴿ ١١ ﴾

الإحسان للمساكين

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة والتي يرشدنا إليها ربنا الإحسان للمساكين الذين لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً ، فهؤلاء المساكين يجب على المسلم رعايتهم والنظر إليهم بعين العطف ، والرعاية ، والشفقة ، والرحمة ، وأن يبذل لهم ما هم في حاجة إليه ، وبذلك يكون المجتمع المسلم مجتمعاً قوياً متماسكاً متيناً نسيجه ، قوية شكيمته كما يصبح هذا الفقير حسن الحال محبباً لمجتمعه المسلم ، بل عاشقاً له متفانياً في حبه مضحياً بروحه في سبيله ، وهذا هو الانتماء الحقيقي الذي تبحث عنه الدولة ، بل الأمة فلا تجده ، وذلك لإنعدام الشفقة والرحمة والرعاية من الحكام لمحكوميههم ، من القادة لشعوبهم ، حيث إن المساكين لا يجدون ملجأ ولا سبيلاً للعيش الكريم أو نصف الكريم ، وبذلك لا تجد انتماءً حقيقياً عند كثرة كثرة من الشعوب ، كما أنك تجد " الولاء " لديهم معدوماً .

يقول الحق - سبحانه وتعالى - في هذا المعنى : ﴿ وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وِبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٨٣] . والمعنى : والمساكين جمع "مسكين" ، وإنما تأخرت درجة المساكين عن اليتامى لأنه قد يمكن أن ينتفع بنفسه ، وينتفع غيره بالخدمة ، ويقول صاحب صفوة التفاسير : " والمساكين هم الذين عجزوا عن الكسب ، فوجب على المسلم رعايتهم وصون وجهه عن السؤال وإعطائه ما يحتاج إليه من نفقه .

ويقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ [سورة النساء: ٨] . وقوله أيضاً ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْعًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [سورة النساء: ٣٦] . يقول الإمام الشهيد " سيد قطب " : { وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو

ومثلها قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْأَجْمَعُونَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الأنفال: ٤١]. والمعنى: أنه يقتضى ثبوت الملك لهؤلاء فى الغنيمة. ومنهم المساكين. ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿وَأَتَتْ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [سورة الإسراء: ٢٦]. والمعنى: أ، الآية خطاب للرسول التى وجهت لهم فى الفياء والغنيمة، وأوجب عليه أيضا إخراج حق المساكين وأبناء السبيل ويجب أن يدفع إلى المسكين ما يفى بقوته، وقوت عياله، وأن يدفع إلى ابن السبيل ما يكفيه من زاده وراحته إلى أن يبلغ مقصده.

ومثلها قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿فَأَتَتْ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الروم: ٣٨]. والمعنى: إن تخصيص الأقسام الثلاثة المذكورين فى الآية وهم: الأقرباء، والمسكين، وابن السبيل " دون غيرهم مع أن الله - سبحانه وتعالى - ذكر الأصناف الثمانية فى الصدقات وهى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَافَةَ فُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرْمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنَ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ٦٠]. فنقول: " إنه أراد هنا بيان من يجب الإحسان إليه على كل من له: سواء كان زكويًا أو لم يكن، وسواء قبل الحول أو بعده، لأن المقصود ها هنا الشفقة العامة، وهؤلاء الثلاثة يجب الإحسان إليهم، وأن لم يكن للمحسن مال زائد. والمسكين يجب العطف عليه، فإن الذى لا يملك شيئاً من حطام الدنيا إذا استمر فى ورطة الحاجة حتى بلغ الشدة يجب على من له مقدرة فى دفع حاجته وإعطائه ما يغنيه وإن لم يكن عليه زكاة.

ومثلها قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِمْ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [سورة الإنسان: ٨]. والمعنى: يقول ابن عباس ومجاهد - رضى الله عنهم - : " وَيُطْعَمُونَ أَلطَّعَامَ، مَعَ شَهْوَتِهِمْ لَهُ، وَرَغَبَتِهِمْ فِيهِ، لِلْفَقِيرِ الْعَاجِزِ

عَنِ الْكَسْبِ (الْمَسْكِينِ) ، وَالْيَتِيمِ الَّذِي مَاتَ أَبُوهُ ، وَهُوَ دُونَ سِنِّ الْبُلُوغِ وَالْأَسِيرِ الْعَانِي الَّذِي لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ قُوَّةً . وقال " الداراني " : " على حب الله " . ويقول الفضل بن عياض : " على حب إطعام الطعام .

وكان الربيع بن خيثم إذا جاءه السائل قال: أطعموه سكرًا فإن الربيع يحب السكر. ولأنه فطن لقوله تعالى : ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ نُفِيقُوا مِمَّا حُبُّونَ وَمَا نُفِيقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ٩٢].
" مسكينا " أي ذا مسكنة .

هذا هو الإسلام الذي يأخذ على عاتقه توجيه معتنقيه إلى العطف والرحمة بالمسكين حتى يغنوه عن المسألة ، صونا لكرامته ، وحفظاً لماء وجهه ، وإنقاذاً له من التردي في مهاوى الهلاك والرذيلة ، ومساعدةً له على الاستقامة ، والسير قدما في طريق الفوز والنجاح وبذلك يقوى المجتمع ويتماسك ويصبح قوة تستطيع رد هجمات الأعداء ، وردع المعتدين ، مع رفع مستوى المعيشة في المجتمع الاسلامى . (١)

1- صفوة التفاسير ج ١ ، ص ٧٤ .

□ ذاته ص ٢٧٥ .

□ تفسير أبو السعود ج ٢ ، ص ١٤٦ .

□ تفسير المراغى ج ٥ ، ص ٣٣ - ٣٤ ، ج ٩ ، ص ١٧ - ٢٠ .

□ ذاته ج ٦ ، ص ٨ - ٩ ، ص ٤٨ - ٤٩ .

□ حاشية الصاوى على الجلالين ج ٣ ، ص ٢٣١ .

□ التسهيل في علوم التنزيل ج ٣ ، ص ١٢٦ .

□ في ظلال القرآن لسيد قطب ، ج ١ ، ص ٥٨٨ .

□ مفاتيح الغيب للرزاي ج ٥ ، ص ٣٧ .

□ ذاته ج ٧ ، ص ٤٩٩ .

□ ذاته ج ١٠ ، ص ٦٦ بتصرف .

□ ذاته ج ١٢ ، ص ٤٧٦ .

□ تفسير القرطبي ج ١٩ ، ص ١٢٨ بتصرف .

الإحسان للجار

يوصى الإسلام بالجار، وَبَيَّنَّ حقوقه على جاره ، وهى كُتْر ، وصدق رسول الله – عليه الصلاة والسلام – إذ يقول : " مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت انه سيورثه " . أي يجعل له ميراثاً ، والإسلام يوضح أن الجيران ثلاثة : جار له ثلاثة حقوق ، وهو الجار المسلم القريب ، له حق الإسلام ، وحق الجوار وحق القرابة ، وجار له حقان : وهو الجار الأجنبي : له حق الإسلام وحق الجوار ، وجار له حق واحد : وهو الذمى ، له حق الجوار . ومن حقوق الجوار ألا تستطيل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح ، وألا تؤذيه بقتار قدرك حتى تغرف له منها ، وإذا أدخلت فاكهة على أولادك فأهده منها ، وإلا فأدخلها سراً ، وبالنسبة للذمى : لا تؤذه حساً ولا معنى ، أرأيت كيف يحافظ الإسلام على مشاعر الإنسان ومراعاة حقوق الجار .

كما أننا نرى القرآن، الكريم يوجهنا ويضع أيدينا على هذه المعاني السامية ، فيقول – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [سورة النساء: ٣٦] . يقول القرطبي فى تفسير هذه الآية : " اجمع العلماء على أن هذه الآية من المحكم المتفق عليه ، وكذلك هى فى جميع الكتب . ولو لم يكن كذلك لعرف ذلك من جهة العقل وإن لم ينزل به الكتاب . وقوله تعالى : قوله تعالى : (وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ) أما الجار فقد أمر الله تعالى بحفظه والقيام بحقه والوصاة برعى ذمته فى كتابه وعلى لسان نبيه .

ألا تراه سبحانه أكد ذكره بعد الوالدين والاقربين فقال تعالى : (وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ) أي القريب . (وَالْجَارِ الْجُنُبِ) أي الغريب ، قاله ابن عباس ، وكذلك هو فى اللغة . ومنه فلان أجنبي ، وكذلك الجنابة البعد .

وأنشده أهل اللغة:

فلا تحرمني نائلا عن جنابة فأني امرؤ وسط القباب غريب
وقال الاعشى :

أتيت حريثا زائرا عن جنابة فكان حريث عن عطائي جامدا
وقرأ الأعمش والفضل (والجار الجنب) بفتح الجيم وسكون النون وهما لغتان، يقال: جنب وجنب وأجنب وأجنبي إذا لم يكن بينهما قرابةً، وجمعه أجنب.

وقيل: على تقدير حذف المضاف، أي والجار ذي الجنب أي ذي الناحية.

وقال نوف الشامى: (الجار ذي القربى) المسلم (والجار الجنب) اليهودي والنصراني. وعلى هذا فالوصاة بالجار مأمور بها مندوب إليها مسلما كان أو كافرا، وهو الصحيح. والإحسان قد يكون بمعنى المواسة، وقد يكون بمعنى حسن العشرة وكف الأذى والمحاماة دونه. روى البخاري عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه).

وروي عن أبي شريح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن) قيل: يا رسول الله ومن؟

قال: (الذي لا يأمن جاره بوائقه) وهذا عام في كل جار.

وقد أكد عليه السلام ترك إذايته بقسمه ثلاث مرات، وأنه لا يؤمن الإيمان الكامل من آذى جاره. فينبغي للمؤمن أن يحذر أذى جاره، وينتهي عما نهى الله ورسوله عنه، ويرغب فيما رضاه حضر العباد عليه.

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الجيران ثلاثة فجار له ثلاثة حقوق. وجار له حقان. وجار له حق واحد. فأما الجار الذي له ثلاثة حقوق فالجار المسلم القريب، له حق الجوار، وحق القرابة، وحق الإسلام والجار الذي له حقان فهو الجار المسلم فله حق الإسلام وحق الجوار والجار الذي له حق واحد هو الكافر له حق الجوار).

روى البخاري عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله، إن لي جارين فألى أيهما أهدي، قال: (إلى أقربهما منك باباً). فذهب جماعة من العلماء إلى أن هذا الحديث يفسر المراد من قوله تعالى: (وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ) وأنه القريب المسكن منك. (وَالْجَارِ الْأَجُوبِ) هو البعيد المسكن منك. واحتجوا بهذا على إيجاب الشفعة للجار، وعضدوه بقوله عليه السلام: (الجار أحق بصقبة). ولا حجة في ذلك،

فإن عائشة رضي الله عنها إنما سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن تبدأ به من جيرانها في الهدية فأخبرها أن من قرب بابه فإنه أولى بها من غيره. قال ابن المنذر: فدل هذا الحديث على أن الجار يقع على غير اللصيق. وقد خرج أبوحنيفة عن ظاهر هذا الحديث فقال: إن الجار اللصيق إذا ترك الشفعة وطلبها الذي يليه وليس له جدار إلى الدار ولا طريق لا شفعة فيه له وكذا وعوام العلماء . يقولون: إن أوصى الرجل لجيرانه أعطي اللصيق وغيره، إلا أبا حنيفة فإنه فارق عوام العلماء وقال: لا يعطى إلا اللصيق وحده. واختلف الناس في حد الجيرة، فكان الاوزاعي يقول: أربعون داراً من كل ناحية .

وروي أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني نزلت محلة قوم وإن أقربهم إليّ جواراً أشدهم لي أذى، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعلياً يصيحبون على أبواب المساجد: ألا إن أربعين داراً جار ولا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه .

وقال علي بن أبي طالب: من سمع النداء فهو جار.

وقالت فرقة: من سمع إقامة الصلاة فهو جار ذلك المسجد.

وقالت فرقة: من ساكن رجلاً في محلة أو مدينة فهو جار.

قال الله تعالى: (لَيْنَ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنْفِقُونَ) إلى قوله: (ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا) فجعل تعالى اجتماعهم في المدينة جواراً. والجيرة مراتب بعضها الصق من بعض، أذناها الزوجة، كما قال:

أيا جارتا بيني فإنك طالقة

الإحسان لابن السبيل والسائل

ويرشدنا القرآن الكريم إلى الإحسان لابن السبيل والسائل . وابن السبيل هو: الذي انقطعت به الطريق فأصبح محتاجاً إلى من يمد له يد العون بالمساعدة . وما يأخذ بيده إلى بر الأمان ، وبلوغه ما يريد ، ووصوله إلى ما يبتغى في سفره . ومقصوده . فيقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [سورة النساء: ٣٦] . والمعنى : وحدوا الله وأطيعوه ، ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ، وبذي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل : وهو المسافر الذي المجاز بك الذي انقطع به الطريق وعجز عن بلوغ ما يريده في سفره مما يحتاج إليه من زاد أو راحلة ، فلقد وجهنا القرآن الكريم إلى مساعدته حتى يصل إلى بلده ، أو تحقيق ما هو في حاجة إليه كسد جوعته أو استضافته ، وتأمينه ، وتأمين طريقه .

ويقول بعض المفسرون : " ابن السبيل المسافر الغريب الذي انقطع عن بلده ، وأهله ، وقيل أن ابن السبيل هو السائح الرحالة في غرض صحيح غير محرم ، والأمر بالإحسان إليه . ويتضمن الترغيب في السياحة ، والعناية والإعانة بها ، ويشمل اللقيط أيضاً ، وهو أجدر بالرعاية من اليتيم ، وأحق بالإحسان إليه وقد عنى الأوروبيون باللقطاء وبتربيتهم ، وقد كنا أحمق من الأوروبيين بهذا الإحسان . وذلك العمل الذي يبني المجتمع الاسلامى ، ولا يدع فيه شقياً ولا محروماً . لأن الله - سبحانه وتعالى - جعل في أموالنا حقاً معلوماً للسائل والمحروم .

ويقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة الأنفال: ٤١] . ويقول الخازن : " وهو المسافر البعيد عن ماله فيعطى من خمس الخمس مع الحاجة فهذا مصرف خمس الغنيمة ويقسم

أربعة أحماسها الباقية بين الغانمين الذين شهدوا الواقعة وحازوا الغنيمة فيعطى للفارس ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه ، ويعطى الراجل سهماً واحداً لما روي عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم في النفل للفارس سهمين وللرجل سهماً .

ويقول الله تعالى : ﴿ وَآتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [سورة الإسراء: ٢٦] . والمعنى : وأعط الغريب المنقطع به السبيل في سفره حقه من مال الله الذي آتاكم ، والذي جعل الله فيه حقا للسائل ، وابن السبيل والمسكين والمحروم . ونفى نفس المعنى يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَآتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الروم: ٣٨] . والمعنى : أعط ابن السبيل حقه من البر والصلة ، والصدقة والإحسان .

ويقول الله تعالى : ﴿ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [سورة الحشر: ٧] . والمعنى : ما رده الله إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من كفار أهل القرى . وهي قال ابن عباس هي قريظة والنضير وفدك وخيبر وقرى عريضة { فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ } يعني بني هاشم وبني المطلب { وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ } قد تقدم تفسيره في سورة الأنفال في حكم الغنيمة وقسمتها وأما حكم الفيء فإنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم مدة حياته يضعه حيث يشاء فكان ينفق على أهله منه نفقة سنتهم ويجعل ما بقي جعل مال الله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله . واختلف العلماء في مصرف الفيء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قوم هو للأئمة بعده وللشافعي فيه قولان أحدهما أنه للمقاتلة والثاني هو لمصالح المسلمين ويبدأ بالمقاتلة ثم بالأهم فالأهم من المصالح .

ونحن نرى أن ابن السبيل غير موجود الآن لسهولة المواصلات ، ووجود الوسائل العصرية مثل الحوالات البريدية ، والشيكات السياحية ، والفيزا كارت ،

فيمكنك أن تشتري أي شيء تحتاجه ، ولو كان ذلك الشيء رخيصاً من الخبز. وذلك من أي مصرف على ظهر الكرة الأرضية . فابن السبيل الآن لا وجود له البتة .
ويقول المولى – سبحانه وتعالى – : " فى نفس المعنى : ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [سورة الضحى: ١٠]. والمعنى : لا تزجر، ولا تنهر المستجدي ولكن يجب أن تتفضل عليه بشيء ، أوترده رداً جميلاً . وقد يكون المراد من السائل المسترشد وهو أيضاً يطلب الرفق به . وبيان أشكاله عليه الأمر .

هذه هى أخلاق القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والتي يجب أن يتغياها المسلم فى حياته حتى يفوز برضوان الله – سبحانه وتعالى – ، ويكون من الذين – رضي الله عنهم – ورضوا عنه ، وأيضاً يكون فى الآخرة من أصحاب الميمنة .^(١)

1- تفسير المراعى : ج ٢ ، ص ٣٦ – ٣٧ .
□ ذاته ج ١٠ ، ص ٣٩ بتصريف .
□ ذاته ج ١٠ ، ص ١٨٧ بتصريف .
□ تفسير الخازن ج ١ ، ص ٢٤١ .
□ صفوة التفاسير ج ١ ، ص ٢٧٥ .
□ دلته ص ١٥٨ .
□ ذاته ، ج ٢ ، ص ٤٧٩ .

الإحسان إلى الأبناء

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة الإحسان إلى الأبناء على الرغم من أنهم فلذات أكبادنا ، وأن الأبناء يعنون كبير العناية بتربيتهم ، ورعايتهم ، وإحاطتهم بسياح من الرأفة ، والشفقة ، والرحمة ، والسهر على راحتهم ، وصدق الشاعر العربي حين قال :

وإنما أولادنا بيننا
لو هبت الريح على بعضهم
أكبادنا تمشي على الأرض
لامتعت عيني من الغمض

ولذلك يقول الحق - سبحانه وتعالى - في هذا المعنى : ﴿ يَرْكَرِكِيْنَا بُشْرِكُ بِعُلْمِ أَسْمُهُ يَحْيَى لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۗ ﴾ [سورة مريم: 7]. والمعنى : يا زكريا إنا نبشرك بواسطة الملائكة بسلام يسمي يحيى . كما فى آل عمران . يعنى لم يسم أحد قبله بهذا الاسم وهو " يحيى " - عليه السلام - . فهو اسم فذ ، وغير مسبوق وقد سماه الله تعالى به ، ولم يترك تسميته لوالديه . يقول مجاهد : " - رضى الله عنه - : " ليس له شبيهه فى الفضل والكمال " . ويقول صاحب اللطائف فى معنى هذه الآية : " أى استجبنا لدعائك ، ونرزقك ولداً ذكراً اسمه يحيى ؛ تحيا به عقره أمه ، ويحيا به نسبك ، يحيا به ذكرك ، وما سألته من أن يكون نائباً عنك ؛ فيحيا به محلُّ العبادة والنبوة فى بيتك { لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا } : انفراده - عليه السلام - بالتسمية يدل على انفراده بالفضيلة ؛ أى لم يكن له سميُّ قبله ؛ فلا أحد كفوُّله فى استجماع أوصاف فضله . ويقال لم تجعل له من قبل نظيراً ؛ لأنه لم يكن أحد لا ذنب له قبل النبوة ولا بعدها غيره . وهذا رأى الإمام القشبرى .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَإِذْ قَالَ لَقْمَنُ لِبَنِيهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ ۖ يَا بَنِيَّ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۗ ﴾ [سورة لقمان: 13]. والمعنى : يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده - وهو: لقمان بن عنقاء بن سدون . واسم ابنه : ثاران فى قول حكاه السهيلي . وقد ذكره الله تعالى بأحسن الذكر ، فإنه آتاه الحكمة ، وهو يوصى ولده الذى هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه ، فهو حقيق أن

يمنحه أفضل ما يعرف؛ ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً، ثم قال تعالى محذراً له: { إِنَّكَ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } أي: هو أعظم الظلم.

قال البخاري، عن عبد الله، رضي الله عنه، قال: لما نزلت الآية: { الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ } ، شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: أينما لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه ليس بذلك، ألا تسمع إلى قول لقمان: { يَبْنِي لَكَ شِرْكَ بِاللَّهِ إِنَّكَ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } .

ومثلها قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [سورة لقمان: ١٩]. والمعنى: ومن بين وصايا لقمان لابنه شفقةً عليه، ورحمةً به هذه الوصية الغالية وهي: وأمشى مشية معتدلة ليس بالبطيء، ولا بالتسريع المفرط بل عدلاً ووسطاً، ولا تتبالغ في الكلام، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه، ولهذا قال - سبحانه وتعالى - : "إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ". فغاية من يرفع صوته أنه يشبه الحمير في علو الصوت، وَرَفَعِهِ.

وروى أبو هريرة - رضي الله عنه - قال: "عن النبي صلى الله عليه وسلم [سورة أنه] قال: "إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها رأيت شيطاناً".

هذه وصايا نافعة جداً، وهي من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم. وقد روي عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة، فلنذكر منها نموذجاً ودستوراً إلى ذلك.

قال الإمام أحمد: عن ابن عمر رضي الله عنه قال: أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن لقمان الحكيم كان يقول: إن الله إذا استودع شيئاً حفظه".

وقال ابن أبي حاتم: عن القاسم بن مُحَيِّمِرَةَ يحدث عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني، إياك والتقنع فإنه مخوفة بالليل، مذمة بالنهار". وقال: حدثنا أبيّ، حدثنا عمرو بن عثمان، عن ضَمْرَةَ، حدثنا السَّرِيِّ بن يحيى قال: قال لقمان لابنه: يا بني، إن الحكمة أجلسست المساكين مجالس الملوك.

وعن عَوْن بن عبد الله قال: قال لقمان لابنه: يا بني، إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام - يعني السلام - ثم اجلس في ناحيتهم، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجلّ سهمك معهم، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم.

وعن حفص بن عمر، رضي الله عنه، قال: وضع لقمان جراباً من خردل إلى جانبه، وجعل يعظ ابنه وعظة ويخرج خردلة، حتى نفذ الخردل، فقال: يا بني، لقد وعظتك موعظة لو وعظها جبل لتفطر. قال: فتفطر ابنه.

وقال أبو القاسم الطبراني: عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اتخذوا السؤدان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة: لقمان الحكيم، والنجاشي، وبلال المؤذن".

ويقول الله - سبحانه وتعالى - أيضا: ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة الطور: ٢٦]. والمعنى: أنهم قالوا إنا كنا في دار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا، مشفقين من عذابه، وخائفين من عقابه، فتفضل الله علينا، وأجارنا مما نخاف. والمقصود وهو إثبات خوفهم في سائر الأوقات وجميع الأحوال بطريق الأولى، فإن وجودهم بين أهليهم مطلبه الأمن، فإذا خافوا في تلك الحال، فلأن يخافوا في غيرها بالأولى.

وروى أن السيدة الفضلى عائشة بنت أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما - قالت: " لو فتح الله على أهل الأرض من عذاب السموم قدر الأنملة لأحرقت الأرض ومن عليها. ويقول صاحب اللطائف في هذه الآية: " لولا أنهم قالوا { فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِمْ } لكانوا قد لاحظوا إشفاقهم، ولكن الحق - سبحانه -

الإحسان إلى الزوجات

ومن الأخلاق القرآنية التى يرشدنا إليها القرآن الكريم الإحسان إلى الزوجات لأنهن عوان لدينا كما أرشدنا إلى ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - وهن أمانة لدى الرجال ، وأنهن خلقن من ضلع أعوج فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته ظلَّ أعوجاً ، وذلك توجيهه نبوي راشد ، ويلزم على ذلك الماراة والصبر حتى تستقيم الحياة الزوجية . وعلى أساس الاستقامة يكون الاستقرار ، وصلاح الأسرة التى هى الخلية الأولى فى بناء مجتمع اسلامى سليم ، فإذا صلحت الأسرة صلح المجتمع ، وإذا صلح المجتمع صلحت الدولة ، وإذا صلحت الدولة صلحت الأمة جمعاء . إذن فالأسرة الصالحة أساس تكوين المجتمع والأمة الإسلامية الناجحة المتحضرة المتقدمة .

ولذلك يقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةٌ الصَّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَابُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَابُ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَحْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُنَّ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَنكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ [سورة البقرة: ١٨٧]. والمعنى : أبيع لكم أيها الصائمون غشيان النساء فى ليالى الصوم . يقول ابن عباس - رضى الله عنه - : " عن أبي إسحاق: سمعت البراء قال: لما نزل صومُ رمضان كانوا لا يقرَّبون النساء، رَمَضَانَ كُلَّهُ، وكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله: { عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَحْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ } .

لَكُمْ فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ مُلَقَوُهُ وَبَشِّرِ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ [سورة البقرة: ٢٢٢: ٢٢٣]. والمعنى : ويسألونك يا محمد - صلى
 الله عليك وسلم - عن غشيان النساء وإتيانهم في حالة الحيض أيحل أم يُحرم ؟
 فقل لهم : " إنه شيء متقدر ، ومعاشرتهن في هذه الحالة فيه ضرر وأذى للزوجين ،
 فاجتنبوا معاشرتهن في حالة الحيض حتى يتطهرن ، ولا تجامعهن حتى ينقطع
 عنهن دم الحيض ، ويغتسلن ، والمراد التنبيه على أن الغرض هو عدم المعاشرة وليس
 عدم القرب منهن ، أو عدم الأكل والشرب والمجالسة مثل ما كان يفعل اليهود . فقد
 كانوا إذا حاضت المرأة لديهم يقاطعونها مقاطعة تامة في الأكل ، والشرب
 والمجالسة .

فإذا تطهرن بالماء فأتوهم في المكان الذي أحله الله لكم ، وهو مكان النسل
 والانجاب والولد ، وفي القبل وليس في الدبر حيث إن الله يحب التأين من الآثام
 والخطايا ، والمتنزهين عن الفواحش ، والاقذار . ونساءكم مكان زرعكم ، وموضع
 نسلكم ، وفي أرحامهن يكون الولد ، فأتوهن في موضع النسل ، والذرية ، ولا تتعدوه
 إلى غيره .

يقول ابن عباس - رضي الله عنهما - : " عن ابن عباس : أنه كان يكره
 أن توتى المرأة في دبرها ويقول : إنما الحرث من القبل الذي يكون منه النسل
 والحيض وينهى عن اتیان المرأة في دبرها ويقول : إنما نزلت هذه الآية : { سَأْوَكُمْ
 حَرْثُكُمْ فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ } يقول : من أي وجه شئتم حدثنا ابن حميد قال
 حدثنا ابن واضح قال حدثنا العتكي عن عكرمة : { فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ } قال :
 ظهرها لبطنها غير معاجزة - يعني الدبر حدثنا عبيد الله بن سعد قال حدثني عمي
 قال حدثني أبي عن يزيد عن الحارث بن كعب عن محمد بن كعب قال : إن ابن

عباس كان يقول : اسق نباتك من حيث نباته حدثت عن عمار قال حدثنا ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع قوله : { فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي شِئْتُمْ } يقول : من أين شئتم ذكر لنا - والله أعلم - أن اليهود قالوا : إن العرب يأتون النساء من قبل إعجازهن فإذا فعلوا ذلك جاء الولد أحول فأكذب الله أحدثتهم فقال : { نِسَاءُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي شِئْتُمْ } . ومعنى أنا شئتم . أي كيف شئتم قائمةً ، أوقاعدة ، مضطجعةً أو غير ذلك من الأوضاع الجنسية ما دمت بعيداً عن الدبر .

وروى عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه ذهب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله هلكت واهلكت .

قال له : ما الذي فعلت ؟ فقال عمر - رضي الله عنه - : " أدبرت رحلى البارحة . فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . فنزل قوله تعالى : { نِسَاءُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي شِئْتُمْ } فقال - صلى الله عليه وسلم - : " أقبلوا وادبروا واتقوا الحيضة والدبر . فهذا وضع عُمرى وليس أجنبي ، وأول من فعله عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - والمقصود بمكان الحرث الفرج وهذا رد على قول اليهود إن العرب يأتون النساء من قبل إعجازهن فإذا فعلوا ذلك جاء الولد أحول فأكذب الله أحدثتهم .

تلك هي الأخلاق القرآنية والسنة النبوية المطهرة وتوجيهاتهما الراشدة التي تعلمنا نحن المسلمين الإحسان إلى الزوجات . ويقول الله - سبحانه وتعالى - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُبُوا النِّسَاءَ كُرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ [سورة النساء: ١٩] . والمعنى : لقد كان أهل الجاهلية يؤذون النساء باضراب كثيرة من الإيذاء ، وألوان من الظلم

فنهاهم الله عنها في هذه الآية . فقال : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا ﴾ فقد كان الرجل في الجاهلية إذا مات وكانت له زوجة جاء ابنه أو غيرها ، أو بعض أقاربه فألقى ثوبه على المرأة وقال : " ورثت هذه المرأة عنه كما ورثت ماله ، فصارت أحق بها من سائر الناس ، ومن نفسها ، فإن شاء تزوجها بغير صداق ، غير الصداق الأول الذي أصدقها الميت ، وإن شاء زوجها انسان آخر واجد في صداقها ولم يعطها منه شيئاً ، فأنزل الله هذه الآية وبين ان ذلك حرام ، وأن الرجل لا يرث امرأة الميت منه ، فعلى هذا القول المراد قوله : ﴿ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ ﴾ . " عين النساء" ، وأنهن لا يُورثن من الميت ، وقيل إن الوراثة تعود إلى المال ، وذلك أن وارث الميت كان له أن يمنعها من الإزواج حتى تموت فيرثها مالها فبين الله – سبحانه وتعالى – أن هذا الأمر غير جائز وحرام لكم أن تراثوا النساء أموالهن وهن كارهات لهذا الأمر.

وقيل نزلت في أهل المدينة كانوا يرثوا النساء من الميت حتى توفي أبوقيس بن الأسلت الأنصاري وترك امرأته كبيشة بنت معن الأنصارية فقام ابن له من غيرها يقال له حصن وقال مقاتل بن حيان : اسمه قيس بن أبي قيس فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها ثم تركها ولم ينفق عليها يضارها لتفتدي منه فأتت كبيشة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن أبا قيس توفي وورث نكاحي ابنه فلا هو ينفق علي ولا يدخل بي ولا يخلي سبيلي فقال : اقعدي في بيتك حتى يأتي فيك أمر الله فأنزل الله تعالى هذه الآية : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ } .

قرأ حمزة والكسائي : كرها بضم الكاف ها هنا وفي التوبة وقرأ الباقون بالفتح قال الكسائي : هما لغتان قال الفراء : الكره بالفتح ما أكره عليهن وبالضم

ما كان من قبل نفسه من المشقة . ويقول تعالى : ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُنْقَبَلَ مِنْكُمْ إِتْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴾ [سورة التوبة: ٥٣]

ويقول تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِإِحْسَانٍ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة الأحقاف: ١٥]. بضم الكاف

أيضاً وقرأ عاصم وابن عامر في الاحقاف بالضم والباقي بالفتح . وقرأ نافع وابن كثير وأبوعمر بالفتح في جميع ذلك ، ويقول الكسائي : هما لغتان قال الفراء : الكره بالفتح ما اكره عليهن وبالضم ما كان من قبل نفسه من المشقة . ونحن نميل إلى هذا الرأي وهو أنسب للمعنى ففي حمل المرأة ووضعها للولد مشقة ونصب .

ثم يقرأ القرآن " { وَلَا تَعْضَلُوهُمْ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُمْ } أي : لا تمنعوهن من الأزواج لتضجر فتفتدي ببعض مالها قيل : هذا خطاب لأولياء الميت والصحيح انه خطاب للأزواج . قال ابن عباس رضي الله عنهما : هذا في الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبته ولها عليه مهر فيضارها لتفتدي وترد إليه ما ساق إليها من المهر فنهى الله تعالى عن ذلك وهذه أحكام عامة تخص جميع المسلمين ، وذلك لإقامة العدل ومحال الظلم من المجتمع الاسلامي ليكن مجتمعاً نظيفاً عفيفاً يحل ما أحله الله ، ويحرم ما حرم الله .

ثم قال : { إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ } فحينئذ يحل لكم إضرارهن ليفتدين منكم . واختلفوا في الفاحشة قال ابن مسعود وقتادة : هي النشوز وقال بعضهم وهو قول الحسن : هي الزنا يعني : المرأة إذا نشزت أو ذنت حل للزوج أن

يسألها الخلع وقال عطاء : كان الرجل إذا أصابت امرأته فاحشة أخذ منها ما ساق إليها وأخرجها فنسخ الله تعالى ذلك بالحدود .

وقرأ ابن كثير وأبو بكر { مُبَيَّنَةٌ } { مبينات } بفتح الياء ووافق أهل المدينة والبصرة في { مبينات } والباقون بكسرهما .

أما من قرأ بالفتح فله وجهان :

الأول : إن الفاحشة والآيات لا تفعل لهما إلى الحقيقة ، إنما الله تعالى هو الذى بينهما .

ثانياً : أن الفاحشة تُبَيَّنُ فإن شهد عليها أربعة صارت مبينة . أما الآيات فإن الله تعالى بينها . أما قرأ بالكسر فوجهه أن الآيات إذا تبينت وظهرت صارت أسباباً للبيان ، وإذا صارت أسباباً للبيان جاز إسناد البيان إليهما ، كما أن الأصنام كانت أسباباً للضلال حسن إسناد الإضلال إليهما كقوله تعالى :

﴿ رَبِّ إِنَّمَنْ أَضَلَّنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِ فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ [سورة إبراهيم: ٣٦].

وقوله تعالى : " وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ " . وهو الكلمة الطيبة ، والمعاملة الحسنة ، فإن كرهتم عشرتها بالمعروف ، آثرتم فراقهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ، هذه توجيهات راشدة وأخلاق قرآنية كريمة عظيمة لو أن المسلم استمسك بها لسعد فى دنياه ، وفاز فى أخره برضوان الله .

ومثلها فى المعنى قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [سورة المؤمنون: ٦]. يقول صاحب الكشاف : " فيه ثلاثة أقاويل :

أولاً : { عَلَيَّ أَزْوَاجِهِمْ } في موضع الحال ، أي الأوالين على أزواجهم : أوقوأمين عليهنّ ، من قولك : كان فلان على فلانة فمات عنها فخلف عليها فلان . ونظيره : كان زياد على البصرة ، أي : والياً عليها . ومنه قولهم : فلانة تحت فلان ، ومن ثمة سميت المرأة فراشاً : والمعنى : أنهم لفروجهم حافظون في كافة الأحوال ، إلا في حال تزوّجهم أوتسريهم ، أوتعلق { عَلَيَّ } بمحذوف يدلّ عليه قوله تعالى { غَيْرُ مَلُومِينَ } .

ثانياً : أنه متعلق بمحذوف يدلّ عليه قوله تعالى : " غَيْرُ مَلُومِينَ " . أي يلامون إلا على أزواجهم ، أي : يلامون على كل مباشر إلا على ما أطلق لهم ، فإنهم غير ملومين عليه . أوتجعله صلة لحافظين ، من قولك : احفظ عليّ عنان فرسي ، على تضمينه معنى النفي ، كما ضمن قولهم : نشدتك بالله إلا فعلت معنى ما طلبت منك إلا فعلك . فإن قلت : هلا قيل : من ملكتك؟ قلت : لأنه أريد من جنس العقلاء ما يجري مجرى غير العقلاء وهم الإناث جعل المستثنى حداً أوجب الوقوف عنده ، ثم قال : فمن أحدث ابتغاء وراء هذا الحدّ مع فسحته واتساعه ، وهو إباحة أربع من الحرائر ، ومن الإماء ما شئت { فَأَوْلِيَّتِكِ هُمُ } الكاملون في العدوان المتناهون فيه . فإن قلت : هل فيه دليل على تحريم المتعة؟ قلت : لا؛ لأنّ المنكوحة نكاح المتعة من جملة الأزواج إذا صحّ النكاح .

ثالثاً : أن تجعله صلة لقوله : " حَفِظِينَ " . والمعنى : أنه يجب حفظ الفرج عن الكل الا في هاتين الصورتين " الزواج ، أو التسرى " . وهو ملك اليمين . ويقول صاحب صفوة التفاسير : " هم حافظون لفروجهم في جميع الأحوال الا من زوجاتهم ، وإمائهم المملوكات فإنهن غير ملومين في ذلك ، وغير مؤاخذين على هذا الفعل . يقول صاحب اللطائف : " لفروجهم حافظون ابتغاء

نَسَلٍ يَقُومُ بِحَقِّ اللَّهِ ، وَيُقَالُ ذَلِكَ إِذَا كَانَ مَقْصُودُهُ التَّعْفُفَ وَالتَّصَاوُنَ عَنِ مَخَالَفَاتِ الْإِثْمِ .

ومثلها في المعنى قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقْتُهُنَّ لِإِعْتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفِدْحَةٍ مُنِيِنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ تَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغَنَّ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذُوَى عَدْلِ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُمْ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ وِزْرَةً قَدْرًا ﴿٣﴾ وَالَّتِي يَبْسُنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِضَعْفِ عَلْيِهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمِلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْتُدُّوهنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمُ فَسَرِّضْ لَهُ أُخْرَى ﴿٦﴾ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا سَيِّجَعُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

[سورة الطلاق: ١: ٧].

والمعنى : الخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - والحكم له ولأمته ، وخص هو بالنداء - صلى الله عليه وسلم - تعظيماً له ، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان افعلوا . يعنى افعل انت وقومك ، فهو نداء على سبيل التكريم والتعظيم . يقول القرطبي : " الخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - . خوطب

بلفظ الجماعة تعظيماً وتفخيماً . والمعنى : يا أيها النبي ، ويا أيها المؤمنون إذا أردتم تطليق النساء فطلقتم النساء مستقبلاً لعدتهن ، وذلك في الطهر ولا تطلقوهن في الحيض .

يقول مجاهد – رضي الله عنه – : " يعنى طاهراً قبل أن يمسه ، فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن يطلق لها النساء . يقول المفسرون : " وإنما نهى عن طلاق المرأة وقت الحيض لئلا تطول عليها العدة فتتضرر ، لأن حالة الحيض منفرة للزوج ، وتجعله يتسرع في الطلاق بخلاف ما إذا كانت طاهراً ، وكونه لم يجامعها في ذلك الطهر ، لئلا يحصل من ذلك الوطاء حمل ، فتنتقل العدة من الحيض لوضع الحمل وفي ذلك ضرر ظاهر ، واضبطوا العدة ، وأكملوها ثلاثي أقرأء كاملة لئلا تختلط الأنساب ، وخافوا الله رب العالمين ، بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .

ولا تخرجوهن من مساكنهن بعد فراقكم لهن إلى أن تنقضى العدة ، ولا تخرجن من البيوت إلا أن تقترب المطلقة عملاً قبيحاً مثل الزنا فتخرج لإقامة الحد عليها . يقول صاحب التسهيل : " نهى الله سبحانه وتعالى أن يخرج الرجل المرأة المطلقة من المسكن الذي طلقها فيه ونهاها هي أن تخرج باختيارها فلا يجوز لها المبيت خارجاً عن بيتها ولا أن تغيب عنه نهياً إلا لضرورة التصرف وذلك لحفظ النسب وصيانة المرأة فإن كان المسكن ملكاً للزوج أو مكترى عنده لزمه إسكانها فيه وإن كان المسكن لها فعليه كراهة مدة العدة وإن كانت قد أمتعته فيه مدة الزوجية ففي لزوم خروج العدة له قولان في المذهب والصحيح لزومه لأن الامتناع قد انقطع بالطلاق إلا أن يأتيين بفاحشة مبينة اختلف في هذه الفاحشة التي أباحت خروج المعتدة ما هي على خمسة أقوال الأول أنها الزنا فتخرج لإقامة الحد قاله الليث بن سعد والشعبي الثاني أنه سوء الكلام مع الأصهار فتخرج

ويسقط حقها من السكني ويلزمها الإقامة في مسكن تتخذة حفظاً للنسب قاله ابن عباس ويؤيده قراءة أبي بن كعب إلا أن يفحش عليكم الثالث أنه جميع المعاصي من القذف والزنا والسرقه وغير ذلك فمتى فعلت شيئاً من ذلك سقط حقها في السكني قاله ابن عباس أيضاً وإليه مآل الطبري الرابع أنه الخروج عن بيتها خروج انتقال فمتى فعلت ذلك سقط حقها في السكني قاله ابن الفرس وإلى هذا ذهب مالك في المرأة إذا نشزت في العدة الخامس أنه النشوز قبل الطلاق فإذا طلقها بسبب نشوزها فلا يكون عليه سكني قاله قتادة لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً المراد به الرجعة عند الجمهور أي أحصوا العدة وامتثلوا ما أمرتم به لعل الله يحدث الرجعة لنسائكم .

ويؤيده قراءة : " إلا أن يفحش عليكم " . وهذه الاحكام هي شرائع الله ومحارمة ، ومن يخرج عن هذه الاحكام ، ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمرها ، فقد ظلم نفسه بتعريضها للعقاب ، وأضر بها حيث فوت على نفسه امكان ارجاع زوجته إليه . ويقول الرازي : " { وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ } وهذا تشديد فيمن يتعدى طلاق السنة ، ومن يطلق لغير العدة { فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ } أي ضر نفسه ، ولا يبعد أن يكون المعنى ومن يتجاوز الحد الذي جعله الله تعالى فقد وضع نفسه موضعاً لم يضعه فيه ربه ، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه ، وقوله تعالى : { لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهُ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا } قال ابن عباس : يريد الندم على طلاقها والمحبة لرجعتها في العدة وهودليل على أن المستحب في التطليق أن يوقع متفرقاً . يقول "ابن القيم" : " إن الله تعالى لما كان يبغض الطلاق ، لما فيه من انفصام عرى الزوجية ، وموافقة عدوه " إبليس " حيث يفرح بافتراق الزوجين وكان مع ذلك يحتاج إليه الزوج والزوجة ، شرعه على وجه تحصل به المصلحة وتندفع به المفسدة ،

وحرمه على غير ذلك الوجه ، فشرع له أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، طلاقاً واحدةً ، ثم يتركها حتى تنقضي عدتها ، فإن زالت أسباب الخلاف ، وحصلت الموافقة كان له سبيل إلى إعادتها ، وجعل العدة ثلاثة قروء ليطول زمن المهلة والاختيار ، فهذا هو الذي شرعه وأذن فيه .

يقول المفسرون : " الامسك بالمعروف هو إحسان العشرة ، وتوفية النفقة ، من غير قصد المضارة في الرجعة لتطول عليها العدة ، والفراق بالمعروف هو: اداء الصداق ، والمتعة عند الطلاق ، والوفاء بالشروط مع توفية جميع حقوقها ، وأشهدوا عند الطلاق ، أو الرجعة شخصين من أهل العدالة ، والاستقامة ممن تتقون في دينهما ، وأمانتهما . يقول صاحب البحر المحيط : " وهذا الاشهاد مندوب إليه عن أبي حنيفة . كقوله تعالى : " وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ " . وعند الشافعية واجب في الرجعية ، مندوب إليه في الفرقة ، وأشهدوا بالحق دون تحيز لأحد ، خالصاً لوجه الله تعالى من غير تبديل وتغيير ، ودون مراعاة للمشهود له ، أو المشهود عليه هذا الذي شرعناه من الأحكام إنما ينتفع به ويتعظ المؤمن الذي يخشى الله ، ويخاف العقاب والحساب في الدار الآخرة ومن يراقب الله ، ويقف عند حدوده يجعل فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ويرزقه من وجه لا يخطر بباله ولا يعلمه .

يقول مجاهد : " كنت عند ابن عباس ، فجاءه رجل فقال : إنه طلق امرأته ثلاثاً ، فسكت حتى ظننا أنه رادها عليه ، ثم قال : ينطلق أحدكم فيركب الحموقة ، ثم يقول : يا ابن عباس يا ابن عباس ، وإن الله عز وجل قال : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) وإنك لم تتق الله فلا أجد لك مخرجاً ، عصيت ربك ، وبانت منك امرأتك ، قال الله : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ) .

ويقول المفسرون : " ذكر الواحدي في « أسباب النزول » أنها نزلت في شأن عوف بن مالك الأشجعي إذ أسرَ المشركون ابنه سالماً فأتى عوف النبي صلى الله عليه وسلم وشكا إليه ذلك وأن أمه جزعت فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتق الله واصبر » وأمره وزوجه أن يكثرَا قولاً : لا حول ولا قوة إلا بالله فغفل المشركون عن الابن فساقَ عنزاً كثيرةً من عنز المشركين وجاء بها المدينة فنزلت الآية ، فيجوز أن يكون نزولها في أثناء نزول هذه السورة فصادفت الغرضين ، ويكون ذلك من قبيل معجزات القرآن .

" وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۗ " . تكملة للتي قبلها فإن تقوى الله سبب تفريج الكرب والخلاص من المضائق ، وملاحظة المسلم ذلك وبقائه بأن الله يدفع عنه ما يخطر بباله من الخواطر الشيطانية التي تثبطه عن التقوى يحقق وعد الله إياه بأن يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب . ومن يعتمد على الله ، ويثق به فيما أصابه ونابه فإن الله كافيه . يقول الصاوي : لقوله تعالى " (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ) " أي من فوض إليه أمره كفاه ما أهمه .

وقيل : أي من اتقى الله وجانب المعاصي وتوكل عليه ، فله فيما يعطيه في الآخرة من ثوابه كفايةً . ولم يرد الدنيا ، لأن المتوكل قد يصاب في الدنيا وقد يقتل . والأخذ بالأسباب . وفي الحديث : " لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير يغدو خماصاً وتروح بطاناً " .

يقول صاحب التسهيل : " حض على التوكل وتأکید له لأن العبد إذا تحقق أن الأمور كلها بيد الله توكل عليه وحده ولم يُعول على سواه قد جعل الله لكل شئٍ قدراً أي مقداراً معلوماً ووقتاً محدوداً واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهم ثلاثة أشهر روي أنه لما نزل قوله والمطلقات يتربصن

بأنفسهن ثلاثة قروء قالوا يا رسول الله فما عدة من لاقرء لها من صغر أو كبير فنزلت هذه الآية معلمة أن المطلقة إذا كانت ممن لا تحيض فعدتها ثلاثة أشهر فقوله اللائي يئسن من المحيض يعني التي انقطعت حيضتها لكبر سنها وقوله واللائي لم يحضن يعني الصغيرة التي لم تبلغ المحيض وهو معطوف على اللائي يئسن أو مبتدأ وخبره محذوف تقديره واللائي لم يحضن كذلك ، والحامل تنتهى عدتها بوضع حملها ، سواء أكانت مطلقة أم متوفى عنها زوجها .

ومن يخش الله في أقواله أفعاله ، ويتجنب ما حرم الله عليه يسهل عليه أموره ، ويوفقه إلى كل خير ، وذلك هو حكم الله ، وشرعه الحكيم . أنزله الله عليكم أيها المؤمنون لتأتمروا به ، وتعملوا بمقتضاه . ومن يتق الله ربه يمنع عنه ذنوبه ، ويضاعف له الأجر والثواب .

يقول الصاوى : " كثر التقوى لعلمه - سبحانه وتعالى - أن النساء ناقصات عقل ودين ، فلا يصبر عليهن ، وعلى تصرفاتهن إلا أهل التقوى " . ويقول صاحب البحر المحيط : " ولما كان الكلام في أمر المطلقات وأحكامهن من العدد وغيرها ، وكن لا يطلقهن أزواجهن إلا عن بغض لهن وكراهة ، جاء عقيب بعض الجمل الأمر بالتقوى من حيث المعنى ، مبرزاً في صورة شرط وجزاء في قوله : { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ } ، إذ الزوج المطلق قد ينسب إلى مطلقته بعض ما يشينها به وينفر الخطاب عنها ، ويوهم أنه إنما فارقها لأمر ظهر له منها ، فلذلك تكرر قوله : { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ } في العمل بما أنزله من هذه الأحكام ، وحافظ على الحقوق الواجبة عليه من ترك الضرر والنفقة على المعتدات وغير ذلك مما يلزمه ، يرتب له تكفير السيئات وإعظام الأجر . ومن قوله تعالى { مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ } للتبعيض : أي بعض مكان سكناكم . وقال قتادة : إن لم يكن له إلا بيت واحد أسكنها في بعض جوانبه .

وقال الحوفي : من لا ابتداء الغاية . و { مِّنْ وُجْدِكُمْ } . وقال الزمخشري : فإن قلت : فقوله تعالى : { مِّنْ وُجْدِكُمْ } . قلت : هو عطف بيان ، كقوله تعالى : { مِّنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ } وتفسير له ، كأنه قيل : أسكنوهن مكاناً من مسكنكم مما تطيقونه ، والوجد : الوسع والطاقة .

" لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا " . وقال تعالى الا يكلف نفسا الا ما آتاها ولا تضيقوا عليهن في السكنى والنفقة حتى تضطروهن إلى الخروج ، أو الافتداء والمعنى أن كانت المطلقة حاملاً فعلى الزوج أن ينفق عليها ولو طالت مدة الحمل حتى تضع حملها ، فإذا رضيت أن ترضع له ولده ، فعلى الرجل أن يعطيها أجر الرضاعة لأن الأولاد ينسبون إلى الآباء .

ويقول صاحب التسهيل : " وإن أرضعن هؤلاء الزوجات المطلقات أولادكم فأتوهن أجرة الرضاع . وهى النفقة وسائر المؤن وليأمر كل واحد صاحبه بالخير ، من المسامحة ، والرفق والإحسان .

يقول القرطبي : " { فَإِنَّ أَرْضَعْنَ لَكُمْ } يعنى أولادكم { فَأَتُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ } يعنى على إرضاعهن ، وفيه دليل على أن اللبن وإن كان قد خلق لمكان الولد فهو ملك للأم وإلا لم يكن لها أن تأخذ عليه أجراً وفيه دليل على أن حق الرضاع والنفقة على الأزواج في حق الأولاد { وَأَتِمُّوا بَيْنَكُمْ مَعْرُوفٍ } أي ليقبل بعضكم من بعض إذا أمره بالمعروف وقيل يتراضى الأب والأم على أجر مسمى والخطاب للزوجين جميعاً أمرهم أن يأتوا بالمعروف وما هو الأحسن ولا يقصدوا الضرر ، وقيل المعروف هاهنا لا أن يُقَصِّرَ الرجل في حق المرأة ونفقتها ولا المرأة في حق الولد ورضاعه لقوله تعالى { وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمُ } أي في حق الولد وأجرة الرضاع فأبى الزوج أن يعطي المرأة أجرة رضاعها وأبت الأم أن ترضعه فليس له إكراهها على إرضاعه بل يستأجر

للصبي مرضعاً غير أمه وذلك قوله : { فَسَرِّضْ لَكُمُ أُخْرَى لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ } أي على قدر غناه { وَمَنْ قُدِرَ } أي ضيق { عَلَيْهِ رِزْقُهُ } فكان بمقدار القوت { فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ } أي على قدر ما آتاه الله من المال { لَا يَكْفُلُ اللَّهُ نَفْسًا } أي في النفقة { إِلَّا مَاءَ آتَاهَا } يعني من المال والمعنى لا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغني في النفقة { سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا } أي بعد ضيق وشدة غنى وسعة .
ويقول أبو حيان : " وفيه عتاب للأُم لطيف كما تقول لمن تطلب منه حاجة فيتوانى عنها : " سيقضيها غيرك " . تريد بذلك أنها لن تبقى غير مقضية ، أنت ملوم ، ويقول الضحاک : " وإن أبت الأم أن ترضع استأجر لولده أخرى ، فإن لم يقبل الطفل مرضعة أخرى غير أمه ، في هذا الحال تجبر الأم على إرضاعه بالأجر . وقوله - سبحانه وتعالى - : " لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ " . هذا بيان الانفاق ، فعلى الموسع قدرة ، وعلى الفقير قدره ، وكعناهُ لينفق الزوج على زوجته ، وعلى ولده الصغير على قدر وسعه وطاقته .

يقول صاحب التسهيل قال " لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ " أمر بأن ينفق كل واحد على مقدار حاله ولا يكلف الزوج ما لا يطيق ولا تضيع الزوجة بل يكون الحال معتدلاً وفي الآية دليل على أن النفقة تختلف باختلاف أحوال الناس يسراً وعسراً .
ومن ضيق عليه رزقه فكان دون الكفاية ، فلينفق على مقدار طاقته ، وعلى قدر ما آتاه الله من المال ، ولا يكلف الله أحداً إلا بقدر طاقته ، واستطاعته فلا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغنى .

يقول أبو السعود في تفسيره لهذه الآية : { لَا يَكْفُلُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءَ آتَاهَا } جلَّ أَوْقَلَّ فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يَكْفُلُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَفِيهِ تَطْيِيبٌ لِّقَلْبِ الْمُعْسَرِ وَتَرْغِيبٌ لَهُ فِي بَدْلِ مَجْهُودِهِ وَقَدْ أُكِّدَ ذَلِكَ بِالْوَعْدِ حَيْثُ قِيلَ فِي الْآيَةِ { سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ

يُسْرًا { أي عاجلاً أو آجلاً . أي بعد العسر يسر والضيق بعده الفرج . ويجعل اليسر بعد العسر ، وفيه بشارةً للمعسر والفقير وذلك بفتح باب الرزق عليه .

هذه هى أخلاق القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، والذى يوجه المسلمين بل الناس اجمعين إلى طرائق الخير ، والعدل ، والرحمة ، والشفقة والإحسان إلى النساء ، وذلك بإيفائهن حقوقهن كاملةً غير منقوصة ، وفى هذه الأخلاق ، والالتزام بها سعادة الزوجين ، واستقامة الأمور ووضع كل شيء فى نصابه ، وبذلك تذهب البغضاء والشحناء ، ويصبح المجتمع المسلم مجتمعاً نظيفاً متماسكاً قوياً ، كما فى ذلك حمايةً للأولاد من التشريد ، والضياع ، إنها أخلاق القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة صلى الله على صاحبها سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - . (١)

1 - الكشاف للزمخشري .

- مفاتيح الغيب جأ ١١ ، ص ٣٤٧ و ما بعدها .
- صفة التفاسير ج ٢ ، ص ٣٠٣ بتصرف .
- لطائف الاشارات ج ٢ ، ص ٥٦٨ بتصرف .
- تفسير القرطبي ج ١٨ ، ص ١٤٨ .
- صحيح مسلم .
- صحيح البخارى .
- التسهيل فى علوم التنزيل ج ٤ ' ص ١٢٦ .
- البحر المحيط ج ٨ ، ص ٢٨٢ .
- محاسن التأويل ج ١٦ ، ص ٥٨٣٨ .
- القرطبي ج ١٨ ، ص ١٦٠ .
- تفسير الطبرى ج ٢٨ ، ص ٩٠ .
- حاشية الصاوى على الجلالين ج ٤ ، ص ٢١٥ .
- التسهيل لعلوم التنزيل ، ج ٤ ، ص ١٢٨ .
- القرطبي ج ١٨ ، ص ١٦٨ .
- حاشية الطاوى ج ٤ ، ص ٢١٧ .
- البحر المحيط ج ٨ ، ص ٢٨٤ .
- التسهيل ج ٤ ، ص ١٢٩ .

مصادر الكتاب

١. القرآن الكريم .
٢. السنة النبوية المطهرة .
٣. فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ، للإمام الحافظ ابن حجر العسقلانى . نشر دار الريان للتراث بالقاهرة سنة ١٩٨٧ م ، تحقيق محب الدين الخطيب .
٤. سنن ابن ماجة ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، نشر دار إحياء التراث العربى بالقاهرة .
٥. سنن الدارمى للحافظ الدارمى السمرقندى ، تحقيق أحمد وخالد السبع ، نشر دار الريان للتراث ، القاهرة .
٦. سنن الدارقطنى للإمام على بن محمود الدارقطنى ، نشر عالم الطب ، بيروت . لبنان .
٧. المُفهم ، شرح صحيح مسلم للقرطبى ، نشر دار الكتاب المصرى ، القاهرة .
٨. عمدة القارئ ، شرح صحيح البخارى للعينى ، نشر دار إحياء التراث العربى ، بيروت . لبنان .
٩. مجمع الزوائد للهيثمى ، نشر موسوعة المعارف ، بيروت . لبنان .
١٠. سنن النسائى بشرح الحافظ جلال الدين السيوطى وحاشية الإمام السندى ، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان .
١١. السنن الكبرى للإمام البيهقى ، تحقيق محمد عبد القادر عطا – نشر دار الكتب العلمية – بيروت . لبنان .
١٢. البحر المحيط .
١٣. البحر المديد ، لإبن عجيبة .
١٤. التحرير والتنوير ، لعاشور .
١٥. التسهيل لعلوم التنزيل ، لإبن جزرى .

١٦. التفسير الكبير، للفخر الرازي .
١٧. الزيادة في كتاب " النهاية " لابن الأثير.
١٨. المعجم الوافي لكلمات القرآن الكريم تأليف : محمد عتريس ، ط : مكتبة آداب بالقاهرة الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ .
١٩. بلاغات النساء لطيفور ، بتحقيق د . عبد الحميد هنداوي ، دار الفضيلة .
٢٠. تفسير ابن كثير .
٢١. تفسير أبو السعود .
٢٢. تفسير الخازن .
٢٣. تفسير القرطبي .
٢٤. تفسير النسفي .
٢٥. تفسير القرطبي ، ط . دار الريان للتراث . القاهرة .
٢٦. تفسير المراعي .
٢٧. تفسير الكشاف ، للزمخشري .
٢٨. حاشية الصاوي على الجلالين .
٢٩. حاشية الشهاب للبيضاوي ، ط . مؤسسة التاريخ العربي .
٣٠. خلق المسلم الشيخ محمد الغزالي، ط . نهضة مصر .
٣١. روح المعاني للألوسي ، ط . دار الفكر سنة ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م
٣٢. في ظلال القرآن للإمام الشهيد سيد قطب ، ط . دار الشروق .
٣٣. لطائف الاشارات للإمام القشيري ، ط . مركز تحقيق التراث ، الهيئة المصرية للكتاب ص ١٩٨٣ م .
٣٤. مختصر تفسير ابن كثير .
٣٥. مفاتيح الغيب .